
11
روايات مصرية للجيب
حرب الجواسيس
د. نبيل فاروق
Looloo
www.dvd4arab.com
المُنشقّ

حرب الجواسيس

لم يخل العالم ، ولن يخلو أبدًا ، من حرب ما ..

فى مكان ما ..

وزمن ما ..

حروب يتقاتل فيها جنود ، وتتصادم فيها أسلحة ومعدات ، وتسيل معها الدماء أنهارًا .

ولكن هناك ، فى كل وقت ، وكل مكان ، حربًا أخرى ، قد تبدأ وتنتهى ، دون أن يشعر بها سوى أصحابها فحسب ..

حرب تحتاج إلى القوة ، والبراعة ، والذكاء ، و ... والمعرفة ..

فهى حرب تدور فى عالم سرى وخاص للغاية ..

حرب العقول ..

والجواسيس ..

كل الجواسيس ..

د. نبيل فاروق



العزف على أوتار الخطر ..

فى السادس والعشرين من يونيو ١٩٥٥م ، كانت البداية ..

كانت مصر كلها تكافح ، للتشبث بثورة وليدة ، تسعى لإحداث تغيير شامل ، ليس فى مصر وحدها ، ولكن فى العالم العربى كله ..

ثورة قلبت كل الموازين فى المنطقة ، وأطلقت شرارة قوية ، امتدت بسرعة ، لتشعل الحماس فى كل قلب عربى ، وتلهب حمم الوطنية ، فى كل شريان ناطق بلغة الضاد ..

العالم كله يتابع تلك الثورة ، فى ترقب ، وحذر ، وقلق ..

وأمل أيضًا ..

ولأن الثورة تهدد كل نظام استعمارى وكل كيان احتلالى ، فى الشرق الأوسط كله ، كان من الطبيعى أن تواجه عصبيات ..

وتحديات .. وتآمرات ..

وبكل قوتها ، سعت القوى المضادة لتحطيم الثورة ، وإسقاطها ، وإجهاض مدها ، وإفساد كل علاقة لها بالدول الكبرى ، والعظمى ، فى العالم كله ..

لهذا كانت عملية لافون ، التى أطلق عليها فيما بعد اسم فضيحة لافون ..

تنظيم إرهابى يهودى ، سعى لترويع الآمنين ، وتخريب المنشآت ، وإفساد العلاقة بين الولايات المتحدة الأمريكية والثورة ، عن طريق تفجير بعض المصالح الأمريكية ، فى القاهرة والإسكندرية ، تحت قيادة وتخطيط وتنظيم جهاز المخابرات الحربية الإسرائيلية ..

وعلى الرغم من دقة وسرية ذلك التنظيم ، إلا أن أحد عيون رجال الأمن المصرى كشف الأمر ، كما أن أحد أفراد التنظيم نفسه أخطأ فى توقيت التفجير ، فاشتعلت إحدى العبوات داخل سرواله ، قبل أن يضعها فى دار سينما مستهدفة ..

وسقط التنظيم اليهودى ..

وكانت فضيحة لجهاز المخابرات الإسرائيلية ، الذى أصبح أضحوكة عالمية ، وانتهت باستقالة رئيسه ..

وأدركت الثورة أهمية ألا تكتفى بأجهزة مكافحة الجاسوسية الداخلية فحسب ، وحتمية أن يكون لديها جهاز قوى ، يسعى

للحصول على الأسرار والمعلومات ، وحماية الأمن القومى فى الداخل والخارج ..

وهكذا ولد جهاز المخابرات العامة المصرية ..

فى الخامس والعشرين من يونيو ١٩٥٥م ، ومنذ نصف قرن من الزمان ، صدر قرار إنشاء المخابرات ، وبدأ عملاق عظيم ينمو فى المنطقة ..

ولقد كانت البداية أعظم من أن تنشر أو تعلن حينذاك ..

ففى سابقة مدهشة ، التقط جهاز المخابرات الوليد (رفعت سليمان الجمال) ، الشاب المصرى ، الضائع بين طموحاته ومتاعبه ، وأدرك أهمية الاستفادة من طبيعته وإمكانياته ، وبدأ فى تدريبه ، وتطويعه ، ليتحوَّل بعبقرية نادرة ومدهشة ، إلى (جاك بيتون) ، الشاب اليهودى ، الموظف بشركة تأمين فى الإسكندرية ، والذى ظهر وسط أوساط اليهود المغلقة ، وأثار انتباههم بطبيعته ، ووسامته ، وتدينه ، مما دفعها إلى التقرب منه ، وتعرفه ، وسرعان ما امتزج بها ، وأصبح جزءًا منها ، على الرغم من صعوبة مثل هذا الأمر ، فى المجتمعات اليهودية المغلقة ، حتى إن

بعض يهود مصر هم الذين بذلوا الكثير من الجهد ، لإقناعه بالهجرة إلى إسرائيل ..

وهاجر (رفعت) إلى أرض العدو ، ومد جذوره هناك ، باعتباره (جاك بيتون) ، رجل الأعمال الوسيم اللبق ، وسرعان ما أصبح أحد نجوم المجتمع هناك ، وأحد أهم وأقوى مصادر المعلومات للمخابرات المصرية ، من قلب إسرائيل ، وأفضل عيونها فى الأرض المحتلة ..

وعبر سنوات وسنوات ، ظل (رفعت) يمثل نموذجًا للعملية الناجحة ، عندما تزوج .. واستقر ومات ، دون أن ينكشف أمره ، أو يتطرق إليه الشك لحظة واحدة ، طيلة عمره كله ..

ولقد حاول جهاز المخابرات الإسرائيلى القيام بعملية مماثلة ، مع الشقيقة سوريا ، عندما استخدم أحد ضباطه ، وهو (إيلى حوفى كوهين) ، الذى ولد وتربى فى مصر ، ليدفعه وسط شوام المهجر ، فى أمريكا الجنوبية ، حتى امتزج بهم ، وعاش وسطهم ، باعتباره (كامل أمين ثابت) ، قبل أن يسافر إلى دمشق ، وينضم إلى حزب البعث هناك ، ويتصرف باعتباره سورى وطنى مخلص ..

ولكن صورة واحدة، نشرتها الصحف الإسرائيلية، أعادت فتح ملف (إيلى كوهين)، عندما كان أحد أعضاء الوحدة اليهودية ١٣١ فى مصر، مما دعا المخابرات المصرية إلى إرسال مسئول رفيع المستوى، إلى الرئيس السورى، لكشف (إيلى كوهين)، الذى تم إلقاء القبض عليه، وحوكم وأعدم علنًا، ليسقط نجم المخابرات الإسرائيلية، فى هاوية الفشل والخسارة ..

ومع اشتعال الحرب على نحو أكثر شراسة بين مصر وإسرائيل، راحت المخابرات المصرية تعمل بكل طاقتها، بجانبيها : (الإيجابى)، المسئول عن جمع المعلومات، وتنظيمها، وتنسيقها، وتحليلها، عبر عشرات الوسائل المختلفة، العلنية والسرية، وزرع العيون والمندوبين، فى قلب المجتمع المدنى، والسياسى والعسكرى الإسرائيلى، و(السلبى) المسئول عن منع العدو وعيونه من اختراق الأمن القومى، أو الحصول على معلوماتنا السياسية والعسكرية والاقتصادية، لحماية أمننا وسلامتنا ومستقبلنا ..

وفى ضربة موجعة لجهاز المخابرات الإسرائيلى، وبتعاون من الشاب آنذاك، والفنان حاليًا (سمير الإسكندرانى)، سقطت أقوى شبكة للجاسوسية، فى مصر كلها ..

ومع الأخبار والمعلومات، التى غمرت الصحف والمجلات، أدرك العالم كله أننا نمتلك جهاز مخابرات قوى، وهو يستعرض صور الجواسيس، الذين سقطوا فى قبضته، ويقرأ عنهم وعن محاكماتهم، وعن فشل جهاز المخابرات الإسرائيلى، الذى حاول إقناع العالم كله بأنه الأقوى والأفضل ..

وقبل أن يلتقط جهاز المخابرات الإسرائيلى أنفاسه، جاءت الضربة التالية أكثر عنفًا ..

وأكثر نجاحًا ..

لقد سقط رجل مخابرات إسرائيلى، فى قبضة المخابرات المصرية .. (باروخ زكى مزراحى)، أيضًا ولد فى مصر، وشرب من نيلها، وتعلم فى مدارسها وجامعاتها، ثم سافر إلى إسرائيل، وأصبح أحد رجال شرطتها، ثم أحد ضباط مخابراتها فيما بعد ..

وفى اليمن، حاول (باروخ) أن يرصد ويصور السفن المصرية فى باب المندب، ولكنه سقط، وانكشف أمره،

على الرغم من كل محاولات تظاهره بالبراءة ، وبأنه تاجر مغربى بسيط ..

وبينما يحاول ويناور ، ويحاور ، فوجئ بضابط مخابرات مصرى يخاطبه باسمه مباشرة ، وكأنما يعلنه أنه لا فائدة من كل ما يفعله ..

وانهار (باروخ) ، واعترف ، وبقى أن يتم نقله إلى مصر ؛ لاستجوابه ومحاكمته ، وكشف ما لديه من أسرار ومعلومات ..

وسقوط رجال مخابرات يختلف تمامًا عن سقوط جاسوس عادى ، فالجاسوس يعرف فقط ما أخبروه به ، وما لقنوه إياه ، أما ضابط المخابرات فلديه صورة شبه كاملة للجهاز الذى ينتمى إليه ..

أسلوبه ، تنظيمه ، أقسامه .. ونظم تعاملاته ..

لذا فقد حاولت المخابرات الإسرائيلية منع وصول (باروخ) إلى مصر بأى ثمن ، حتى لو أدى هذا إلى قتله ..

وكان تحديًا جديدًا للمخابرات العامة المصرية ، ورجالها ، إلا أنها قبلت التحدى ، وواجهت الخطر ، وقام ضابط المخابرات بنقل (باروخ) إلى القاهرة بالفعل ، بمغامرة تحبس الأنفاس ،

وتتفوق حتى على أفلام المغامرات المثيرة ، على كل المستويات ..

وفى القاهرة ، تم استجواب (باروخ) ، واعتصاره ، قبل أن يصدر الحكم بسجنه لعدة سنوات ..

وحاولت المخابرات الإسرائيلية أن تخمد أحزانها ومرارتها ، عن طريق زرع جاسوس آخر فى مصر ، وهو مدرب الخيول اليهودى الديانة ، الألمانى الجنسية (لوتز) ، والذى نجح فى التوغل فى المجتمعات العليا ، قبل أن يفاجأ ذات يوم بالمخابرات المصرية تقتحم منزله ، وتلقى القبض عليه ، على نحو جعله يدرك أن أمره قد انكشف بالفعل ، منذ فترة طويلة ..

وفى حديث له ، فى التليفزيون الإسرائيلى ، أبدى (لوتز) دهشته من أن ضابط المخابرات المصرى ، الذى ألقى القبض عليه ، قد دخل منزله ، واتجه إلى مكتبه ، والتقط كتاب الشفرة بالتحديد ، من بين كل الكتب هناك ، مما لم يكن يحمل سوى دلالة واحدة ..

إن المخابرات المصرية قد اخترقت المخابرات الإسرائيلية بوسيلة ما ، وكشفت أمره من قلبها ..

وفى الفترة بين يونيو ١٩٦٧م ، وأكتوبر ١٩٧٣م ، بلـغ صراع المخـابرات المصرى الإسرائيلى ذروتـه ، إذ حـاول الإسرائيليون استغلال شعور الهزيمة ، فى قلوب المصرييـن ، لتجنيد عدد منهم ، لخيانة أوطانهم ، وكان من بينهم (أحمد الهوان) ، الشاب المصـرى المخلص ، الذى قاوم محاولـة تجنيده ، على الرغـم مـن ضيق حالـه ، وصعوبـة ظروفـه ، وأبلغ المخابرات المصريـة مباشرة ، وتعـاون معهـا ، علـى نحو بـارع متقن ، حتـى انخدعت المخـابرات الإسرائيلية ، ووثقت به تمامًا ، ومنحته أحد أدق وأخطر أجهزة الاتصال لديها ، فى ذلك الحين ..

وفى الوقت ذاته ، كانت المخابرات الإسرائيلية قد نجحت فى تجنيد (إبراهيم سعيد شاهين) ، و(انشـراح علـى موسـى) كجاسوسين) لها ، وراحت تنهـل مـن كـل مـا يرسلونه مـن معلومـات ، واثقـة مـن ولائهمـا ، حتـى إنهـا منحتهمـا رتبًـا خاصة ، فى الجيش الإسرائيلى نفسه ..

وفى وقت واحد تقريبًا ، تلقت المخابرات الإسـرائيلى صفعتين قويتين ، مدويتين ، من المخابرات المصرية ..

لقد سقط (إبراهيم وانشراح) ، فى نفس الوقت الذى حصـل فيه (الهوان) على جهاز الاتصالات الإسرائيلى المتقدم ، ثم أرسلت المخابرات المصرية عبره رسالة ، تعلن فيها المخابرات الإسرائيلية أنه رجلها ..

وتوالت انتصارات المخابرات المصرية ..

ولعل أعظم أعمالها ، عبر نصف قرن من البطولات ، كـان التنسيق والتخطيط ، والمشاركة فى خطة الخداع الاستراتيجية الرائعـة ، التـى أوهمـت العدو تمامًا ، بـأن مصـر لا تفكـر ، ولا تنوى أبدًا دخول حـرب جديدة ، لتحرير أرضها المحتلة ، وأنهـا قـد استقرت فى حالـة مـن اللاسلم والـلاحـرب ، إلـى أجل غير مسمى ..

وفى كتابهم (التقصير) ، أكَّد الإسرائيليون أن كل المعلومـات ، التـى جمعتهـا أجهـزة استخباراتهم ، مـن المصـادر العلنيـة والسرية ، كانت تؤكد وتحتم هذه الحقيقة ، حتـى أن انـدلاع الحـرب ، فـى السـادس مـن أكتوبـر ١٩٧٣م ، قـد صدمتهـم صدمة عنيفة ، وغيَّرت مفـاهيمهم تمامًـا عن المصريين ، وعن المخابرات العامة المصرية ..

والكتاب يحوى العشرات من التفاصيل ، التى يندى لها جبين الإسرائيليين ، وتعلو بها هامة مخابراتنا ، عبر المبدأ الذى يقول : « وشهد شاهد من أهلها » .. والواقع أن ملحمة الخداع ، التى سبقت حرب ٧٣ ، كانت مثالاً للدقة المتناهية ، والتسيق الشديد ، والبراعة بلا حدود و ...

ولأن حرب المخابرات والجاسوسية لا تنقطع أبدًا ، فى السلم والحرب ، فإن نهاية الحرب لم تعن نهاية الصراع ، الذى تواصل عبر الزمن فى العقد الأخير من القرن العشرين ، والسنوات الأولى من القرن الحادى والعشرين أيضًا ..

كل ما حدث هو أن طبيعة الصراع فقط تغيرت ، مع تغير الأهداف ، وخريطة المنطقة ، ومتطلبات العصر الحديث ..

الحصول على المعلومات أصبح يستلزم جهدًا أكبر ، وتكنولوجيا أكثر تطورًا ، واتجاهات جديدة تمامًا ، اقتصادية ، ومدنية ، وعلمية ..

والصراع صار أكثر دقة وصعوبة وإرهاقًا ..

وعلى عكس ما يتصورُ العديدون ، وظل الجاسوس البشرى أحد أهم مصادر المعلومات ، وأكثرها قوة ومصداقية ..

وقامت المخابرات المصرية بعملها على أكمل وجه ..

وواصلت قتالها من أجل حماية الأمن القومى ، وأسرار الوطن ومعلوماته ..

وقرأنا من قضايا جاسوسية ..

وعن جواسيس كشفتهم وأسقطتهم وأوقعت بهم المخابرات العامة ..

وأدركنا أن الرجال ما زالوا يسهرون لحمايتنا ، ورعايتنا ، والحفاظ على أمننا وسلامتنا ..

فتحية لكل من بذل العرق والجهد والدم ، فى سبيل هذا الوطن ..

تحية لكل من ذاق عظمة الفداء ، ونعم بروضة التضحية ..

تحية للساهرين الصامتين ، اليقظين دومًا ..

تحية لمصر ، ومن مصر ، وشعبها ، وقلوبها فى اليوبيل الذهبى لرجالها ..

رجال المخابرات العامة المصرية ؟

د. نبيل فاروق

موسوعة الجاسوسية :

إم إس إس

MSS

وزارة أمن الدولة ، وكالة أساسية صينية لجمع الاستخبارات و(الاستخبارات المضادة) .

خرجت من إطار كونها مكتبًا ، لتصبح فى مرتبة وزارة فى ١٩٨٣م ، جاء تصميم الـ MSS بعد الـ (KGB) ، على الأقل للمراقبة المحلية ، وللسيطرة على جهاز الاستخبارات الصينى المعقد ..

والسبب الذى من أجله تأسست الـ MSS ، كما ذكر القانون الصينى فى يوليو ١٩٨٢م ، كان لمقاومة وكالات التجسس الأجنبية ، ولقد نص القانون على التالى :

« حيث إن الصين تبنت سياسة الانفتاح على العالم الخارجى ، فإن وكالات الاستخبارات أو الخدمات السرية لبعض الدول الأجنبية ، قد زودت من أنشطتها ؛ للحصول على أسرار الدولة الصينية ، وأرسلت عملاء خصوصيين داخل الصين ؛ لأغراض مخربة وهدامة . »

كان لدى وكالات الاستخبارات الغربية معلومات نادرة وغير جديرة بالثقة عن الـ MSS حتى ١٩٨٥م ، عندما انشق يو زنسان ، المدير السابق لمكتب الشئون الخارجية بالـ MSS ..

ومن المحتمل أن يو زنسان قد كشف (لارى دو ـ تاى تشينى) ، مستخدم للـ CIA لفترة طويلة ، والذى قبض عليه بتهمة التجسس فى ١٩٨٥م .

حافظت الـ MSS على المكاتب المخصصة لتايوان ، وهونج كونج ، وماكاو ، مع مكتب الشئون الخارجية ، الذى يشرف على عمليات الـ MSS فى أى مكان آخر فى العالم ، وازداد جمع الاستخبارات بحدة فى هونج كونج وماكاو ، فى السنوات الأخيرة ؛ بعد عودة هذه المقاطعات المستعمرة إلى الصين ..

تتعقب الـ MSS أيضًا الصينين الخارجين عن النظام ، داخل الدول الأخرى ، وتشرف على المراقبة على الأجانب ، خاصة الصحفيين ، كما تدير الـ MSS معهد العلاقات الدولية المعاصرة ، وهو صهريج فكرى صينى فى Beijing ، وليس لديه روابط حكومية ظاهريًا فقط ، وينشر المعهد جورنال سرى ، (العلاقات الدولية المعاصرة) ، وله تداول محدود بين كبار مسئولى الحزب الشيوعى ..

ولقد فتحت الـ MSS أيضًا كلية Beijing للعلاقات الدولية ، والتى فى حقيقتها مدرسة تجسس تدرب مستخدمى الـ MSS .



الخدعة الطبية !! (قصة واقعية)

سبتمبر ١٩٧٣م ..

اقتربت ساعة الصفر ، وبدأ العد التنازلى لحرب أكتوبر ، وبلغت حرارة الرجال حدًا مخيفًا ، على الرغم من انخفاض درجات الحرارة الفعلية ، ووصولها إلى معدلات معتدلة ، بالنسبة لهذه الفترة من العام ..

فكل شىء ينبغى دراسته بمنتهى الدقة والعناية ، حتى أدق أدق التفاصيل بحيث تمضى الخطة فى مسارها ، دون أن ينتبه العدو ، أو تلتقط عيونه لمحة واحدة ، يمكن أن تفصح عما يديره جيشنا ، وتعده له قيادتنا السياسية والعسكرية ..

ولم يعد هناك وقت للنوم .. الجميع صاروا يعملون ليلاً ونهارًا ، بلا انقطاع تقريبًا ، وكل فريق منهم يعيد دراسة الأمور ، وتقييمها ، فى ظل ما يستجد من معلومات ، يتولى عدد من أمهر الجواسيس والعملاء جمعها بلا هوادة ، من كل المصادر الممكنة ، فى قلب النسيج الأساسى للعدو ..

وكلما برزت مشكلة ، كان على الرجال أن يفحصوا ويمحصوا ، ويجاهدوا للبحث عن أفضل الحلول لها ، وبأكثر الوسائل سلامة وأمنًا ..

وفى الوقت ذاته كانت هناك مشكلات معتادة وتقليدية ، فى كل الحروب يدركها ويعلمها العدو ، تمامًا مثلما ندركها ونعلمها ، ومن الضرورى أن يجد الخبراء لها حلولاً مبتكرة وجديدة ، بحيث لا ينتبه العدو إلى هذه الحلول التى تقوده بالطبع إلى وجود المشكلة وارتباطها الحتمى بقرب اندلاع الحرب ..

ومن أكبر هذه المشكلات وأكثرها أهمية ، مشكلة توفير أماكن العلاج للمصابين الذين قدر الخبراء أنهم سيبلغون خمسين فى المائة فى موجة العبور الأولى ، ثم يتناقص العدد بعدها تدريجيًا ..

وطبقًا لتقديرات الخبراء ، كان من الضرورى ، بل من المحتم أن يتم إخلاء عدد من المستشفيات المدنية ، حتى يمكنها استقبال كل هذا العدد الذى لن تستوعبه مستشفيات القوات المسلحة وحدها حتمًا ..

ومن أجل هـذه المشكلة اجتمع الرجـال كثيرًا وطويلاً ، وراحوا يدرسون ويفكرون ، ويناقشون ويتجادلون ..

وفى اهتمام شديد ، قال أحدهم ، وهو يرتشف رشفة من قدح القهوة الساخن ، فى الرابعة والنصف صباحًا :

ـ « المشكلة أن إخلاء المستشفيات المدنية ليس بالعمل البسيط الذى يمكن مداراته أو إخفاؤه ، فكل مريض يسعى للعلاج سيشعر بالغضب والثورة ، وسيشكو لجيرانه وأقاربه وأصدقائه وزملاء عمله ، وسيجد بينهم حتمًا من ينقل الخبر ، وبأقصى سرعة إلى تل أبيب .. »

بدا عليهم شىء من الضيق والإحباط ، ثم لم يلبث أحدهم أن اعتدل بحركة حادة ، وقال فى حماسة :

ـ إلا لو تم هذا لسبب منطقى .

التفتت إليه العيون كلها فى تساؤل وجد طريقه إلى لسان أحدهم ، وهو يقول :

ـ وما الذى يمكن أن يكون هذا السبب المنطقى ؟

أجابه الأول بنفس الحماسة :

ـ سبب طبى بحت .

ثم راح يشرح الخطة التى برزت فى ذهنه .. وبكل التفاصيل ..

واستمع إليه الرجال بمنتهى الاهتمام ، حتّى انتهى من الشرح ، ودون أن يقاطعه أحدهم لحظة واحدة ، ثم بدءوا مناقشاتهم ومحاوراتهم ، التى امتدت حتى السابعة صباحًا ، قبل أن يربت رئيسهم على منضدة الاجتماعات براحته قائلاً :

ـ على بركة الله .. فلنضع الخطة موضع التنفيذ .

وبعد سبع ساعات واثنتى عشرة دقيقة بالتحديد ، وصل إلى إحدى الوحدات العسكرية فى السويس قرار من إدارة شئون الضباط للقوات المسلحة ، بتسريح ضابط طبيب من الخدمة ، وعودته إلى الحياة المدنية ..

ولما كان ذلك الإجراء نادر الحدوث ، فى تلك الفترة ، فقد أظهر الضابط الطبيب فرحته وسعادته ، وهمس للمقربين إليه بأن جهود خاله الذى يحتلّ مكانة رفيعة فى القيادة ، هى التى منحته هذا الامتياز ، وأعادته إلى الحياة المدنية ،

حتى يمكنـه استكمال دراسـاته العليا ، التى توقَّفت مؤقتًا ، بسبب التحاقه بكلية ضباط الاحتياط منذ عدة سنوات ..

وكإجراء طبيعى ، لم يكد الطبيـب (ع) يعود إلى حياتـه المدنيـة ، حتـى تسلم وظيفتـه السابقة فى وزارة الصحـة ، التـى تركتـه على قوتها ليومين أو ثلاثـة قبـل أن تمنحـه خطاب التعيين فى مستشفى (الدمرداش) الذى وقع عليه الاختيار ليكون على رأس قائمـة المستشـفيات المطلـوب إخلاؤها ، قبل أن تنشب الحرب ..

والتحق (ع) بالمستشفى ، وأبدى نشاطًا ملحوظًا ومهـارة وكفاءة فى عمله فى قسم الجراحة .

وقبل أن يمضى أسبوع واحد علـى تسلّمه العمـل ، حتـى كان يتقدم بمذكرة إلى مدير المستشفى فى انفعال :

ـ خطأ .. استمرار العمل بهذا المستشفى خطأ .

تطلّع إليه المدير فى دهشة، وهو يسأله :

ـ لماذا ؟! كل شىء يدور على ما يرام .

لوح (ع) بسبَّابته فى حزم ، وهو يقول :

ـ هذا ما يبدو ظاهريًا ، ولكن هناك مشكلة بالغة الخطورة ، لست أدرى كيف لم ينتبه إليها أحد ..

ثم مال نحو المدير ، وأضاف فى لهجة تشف عن أهميـة وخطورة الأمر :

ـ معظم عنابر المستشفى ملوَّثة بميكروب التيتانوس .

قفز المدير من مقعده كالمصعوق ، وهو يهتف :

ـ التيتانوس ؟! هذا مستحيل !

احتدمت المناقشة بينهما لفترة طويلة ، وأصر الطبيب (ع) على رأيه ، وعلى أن مواصلة استقبال المرضى فى المستشـفى لها عواقب وخيمـة ، وحذَّر المدير من أنـه سيحمله المسئولية الكاملة ، لو انتشرت الإصابة بالميكروب .

ولم يخضع المدير للأمر فى سهولة ، وإنما قرر القيام بفحص شامل ، وإجراء عدد مـن التحليلات ، قبل اتخاذ أى قرار فى هذا الشأن .. وتم جمع العينات المطلوبة ، وإجراء كل الفحوص الممكنة ..

ثم أتت النتائج ..

والمدهش أنه وعلى الرغم من خلو المستشفى فعليًا من الميكروب ، إلا أن كل النتائج إيجابية وكأنما تحول مستشفى (الدمرداش) إلى مزرعة نشطة لميكروب التيتانوس بالذات ..

وصدر قرار بإخلاء المستشفى تمامًا من المرضى لتطهيره من الميكروب ، وتم اتخاذ كل الإجراءات اللازمة لهذا ..

وفى نفس الليلة اجتمع الرجال مرة أخرى ..

كان من الواضح أن خطتهم تسير على خير ما يرام بالنسبة لمستشفى (الدمرداش) ولكن أحدهم طرح تساؤلاً غاية فى الأهمية والخطورة :

ـ ماذا عن المستشفيات الأخرى ؟! هل سنتبع معها الخطة ذاتها ؟!

أجابه أحد زملائه فى حسم :

ـ من المستحيل بالطبع أن نفعل ، فلو تكرر الأمر على النحو نفسه ، سينتبه العدو إلى أن الأمر ليس طبيعيًا على الإطلاق ، مما سيثير شكوكه ، ويدفعه إلى دراسة الأمر وتحليله ، مما سيوصله حتمًا إلى استنتاج الحقيقة .

قال آخر فى انفعال :

ـ ينبغى ألا نسمح له بهذا قط .

عاد الأول يسأل :

ـ ماذا يمكننا أن نفعل إذن ؟ ران عليهم صمت ثقيل ، وكل منهم يفكر فى الأمر ، ثم لم يلبث أحدهم أن كسر ذلك الصمت ، وهو يقول فى اهتمام :

ـ دعونا نطرح على أنفسنا سؤالاً مهمًا .. ما الذى ينبغى فعله فى الظروف العادية ، لو أن مستشفى (الدمرداش) تلوث بميكروب (التيتانوس) فعليًا ؟

أجاب أحدهم بسرعة ، وبنفس الاهتمام : ستكون فضيحة وسيصبح الأمر حديث الصحف .

تراجع الرجل ، قائلاً بابتسامة كبيرة :

ـ عظيم .. هذا بالضبط ما نحتاج إليه .

تساءل آخر فى دهشة :

ـ الفضيحة ؟!

أجابه فى حماس :

ـ بل حديث الصحف .

قالها ومضى يشرح فكرته ، التى اعتمدت على تعاون الصحافة وتأثير الكلمة المطبوعة على مشاعر الجماهير ، وبخاصة لو كانت كلمة لكاتب يحترمه الجميع ، ويثقون بما يقول ويكتب تمام الثقة .. وكل من عمل أو يعمل فى مجال المخابرات ، يدرك جيدًا أنه من أهم المصادر التى يستقى منها العدو معلوماته ، الصحف ، حتى إنه لكل جهاز مخابرات تقريبًا قسم خاص ، مهمته الحصول على الصحف والمطبوعات بأسرع وسيلة ممكنة ، للاطلاع على ما بها ، ودراسته وتحليله واستقاء عشرات المعلومات منه ..

ومن هذا المنطلق ، وبعد مشاورات ومحاورات استغرقت أربع ساعات كاملة ، اتخذ الرجال قرارهم بالوسيلة التى ينبغى التعامل بها فى هذا الشأن مع رجال الصحافة والإعلام ..

وفى السادسة صباحًا ، ارتفع رنين الهاتف فى منزل الكاتب الصحفى المعروف (م ص) الذى استيقظ على الفور ، والتقط سماعة الهاتف فى سرعة ، متصورًا إنهم يستدعونه إلى الصحيفة التى يعمل بها ، لحدوث أمر طارئ

أو جلل ، يحتاج إلى تغطية صحفية عاجلة ، لذا فقد أدهشه ، عندما ألقى سؤاله لمعرفة محدثه ، أن يسمع على الطرف الآخر صوتًا مهذبًا ، يقول :

ـ معذرة يا أستاذ (م ص) .. أنا (....) من المخابرات العامة المصرية .

انتفض جسد الرجل فى دهشة ، تمتزج بشىء من التوتر ، نظرًا للفكرة الخاطئة ، المأخوذة عن المخابرات العامة فى ذلك الوقت ، وتساءل فى عصبية عن السبب الذى يطلبه من أجله رجل المخابرات ، فى السادسة صباحًا ، فاعتذر له الرجل فى لهجة شديدة التهذيب ، وهو يقول :

ـ الواقع أن الأمر مهم وعاجل ، وسرى للغاية .. هل تمانع فى تناول قهوة الصباح معنا .

ردَّد الكاتب الصحفى فى قلق شديد :

ـ قهوة الصباح فقط ؟!

أجابه رجل المخابرات فى اختصار حاسم واثق :

ـ بالتأكيد .

صمت الكاتب بضع لحظات ، وكأنما يدير الأمر فى رأسه ، قبل أن يقول فى حذر :

ـ فليكن .. سأرتدى ملابسى ، واتصل بالجراج لإحضار السيارة ، و ....

قاطعه رجل المخابرات بلهجة مهذبة :

ـ لا داعى .. ستجد سيارتنا فى انتظارك أمام الباب .

ضاعف هذا الرد من توتر الكاتب الصحفى (م ص) وقلقه ، إلا أنه ارتدى ثيابه بأقصى سرعة ، ثم هبط من منزله ، ليجد من يستقبله أمام سيارة بتحية حارة ، وفتح له بابها الخلفى فى احترام ، ثم انطلق يقطع شوارع (القاهرة) نحو أحد المبانى التابعة لجهاز المخابرات العامة ، حيث استقبل رجل المخابرات الكاتب الصحفى بابتسامة ودود ، وهو يقول :

ـ تقبل اعتذارنا مرة أخرى يا أستاذ (م) ولكنك عندما تعرف لماذا طلبنا مقابلتك ، ستقدر موقفنا جيدًا .

لم تكن الكلمات كافية لإزالة توتر الكاتب الصحفى ، ولكن أسلوب رجل المخابرات البسيط الودود ، وطريقته المباشرة فى شرح الأمور ، وتوضيحه لأهمية تعاون الأستاذ (م) مع الجهاز كلها أزالت حاجز التوتر والقلق ، وجعلت الكاتب يستمع فى اهتمام وانتباه ، ويتفاعل مع الموقف بكيانه كله ..

والطريف أن رجل المخابرات لم يشرح له حقيقة المواقف قط .. كل ما قاله هو أنهم يحاولون إجراء تجربة عملية ، لما يمكن أن يحدث لو لجأ العدو إلى أسلوب الحرب البكتروبيولوجية ، ونشر نوعًا من الميكروبات فى البلد ، وخاصة فى المستشفيات ، وأن أفضل وسيلة إجراء مثل هذه التجربة ، دون إثارة الذعر ، هى ادعاء وجود ميكروب معروف ، يلوث عددًا من المستشفيات ، مما يحتم إخلاءها بأقصى سرعة ..

واقتنع الأستاذ (م) تمامًا بحديث رجل المخابرات ..

بل وتحمس له بشدة ..

وفى الصباح التالى مباشرة ، نشرت جريدة الأهرام خبر إخلاء مستشفى (الدمرداش) من المرضى ، بسبب تلوث معظم عنابره بميكروب (التيتانوس) ..

ثم جاء دور الأستاذ (م) ..

وفى مقال ملتهب استنكر (م) ما حدث فى مستشفى (الدمرداش) وعزاه إلى الإهمال والاستهتار ، ثم تساءل فى النهاية عما إذا كان الأمر يقتصر على هذا المستشفى وحده ، أم أن مسلسل الإهمال قد بلغ بعض المستشفيات الأخرى ؟!

وفى اليوم التالى خرج بمقال آخر ، حول الموضوع نفسه ..

ثم مقال ثالث ..

ومع رد انفعال الجماهيرى ، وبناءً على هذه الحملة الصحفية الساخنة ، أصدرت وزارة الصحة قرارًا بإجراء تفتيش على باقى المستشفيات ..

والطريف أنها أسندت هذه المهمة للطبيب (ع) نفسه ، من قبيل المصادفة !!

وانطلق (ع) يواصل مهمته ، ويجرى التفتيش على عدد كبير من المستشفيات ، من ضمنها تلك التى تحتل القائمة ، التى وضعها رجال وزارة الدفاع والمخابرات العامة ..

ولم يكد أول أكتوبر يأتى حتى كان العدد المطلوب من المستشفيات قد تم إخلاؤه نهائيًا ، ونشرت جريدة الأهرام تحقيقًا علنيًا حول هذا الأمر ، مع صور الأسرة الخالية ، وعمليات التطهير المستمرة ..

والتقط رجال المخابرات أنفاسهم فى ارتياح لنجاح الخطة ، ثم عادوا يكتمونها فى قلق شديد ، خشية أن يكشف العدو الأمر ، قبل اندلاع الحرب ..

ولكن هذا لم يحدث والحمد لله ..

فبعد ستة أيام بالتحديد ، نشبت حرب أكتوبر ، واندفعت موجة العبور الأولى تشق قناة السويس ، وتعبر حاجز الهزيمة ، وتحتل أقوى خط دفاعى فى التاريخ ، وتحطم أسطورة الجيش الإسرائيلى ، الذى أشاع أنه لا يقهر أبدًا ..

وخفقت قلوب الرجال فى حماس وزهو لا يخلوان من الدهشة والتقدير .. لقد تحقق عامل المفاجأة إلى أقصى حد ، وبوغت العدو تمامًا لعملية العبور ، حتى إن معدلات الخسائر ، التى قدرها الخبراء بخمسين فى المائة فى موجة العبور الأولى ، انخفضت حتى لم تتجاوز العشرة فى المائة ، وهو أقل معدل خسائر عرفته الحروب الحديثة ، فى عملية عبور مائى حصين كهذا ..

وعندما تحركت كتائب الإسعاف ؛ لنقل المصابين إلى الخطوط الخلفية ، وتوفير أفضل عناية ورعاية لهم ، كانت كل المستشفيات المطلوبة خالية ، ومعدة لاستقبالهم ، وتوفير كل الخدمات الطبية لكل واحد منهم ..

هذا لأن الخدعة قد نجحت نجاحًا منقطع النظير ..

الخدعة الطبية .

★ ★ ★

موسوعة الجاسوسية :

المخابرات التقنية

Technical Intelligence

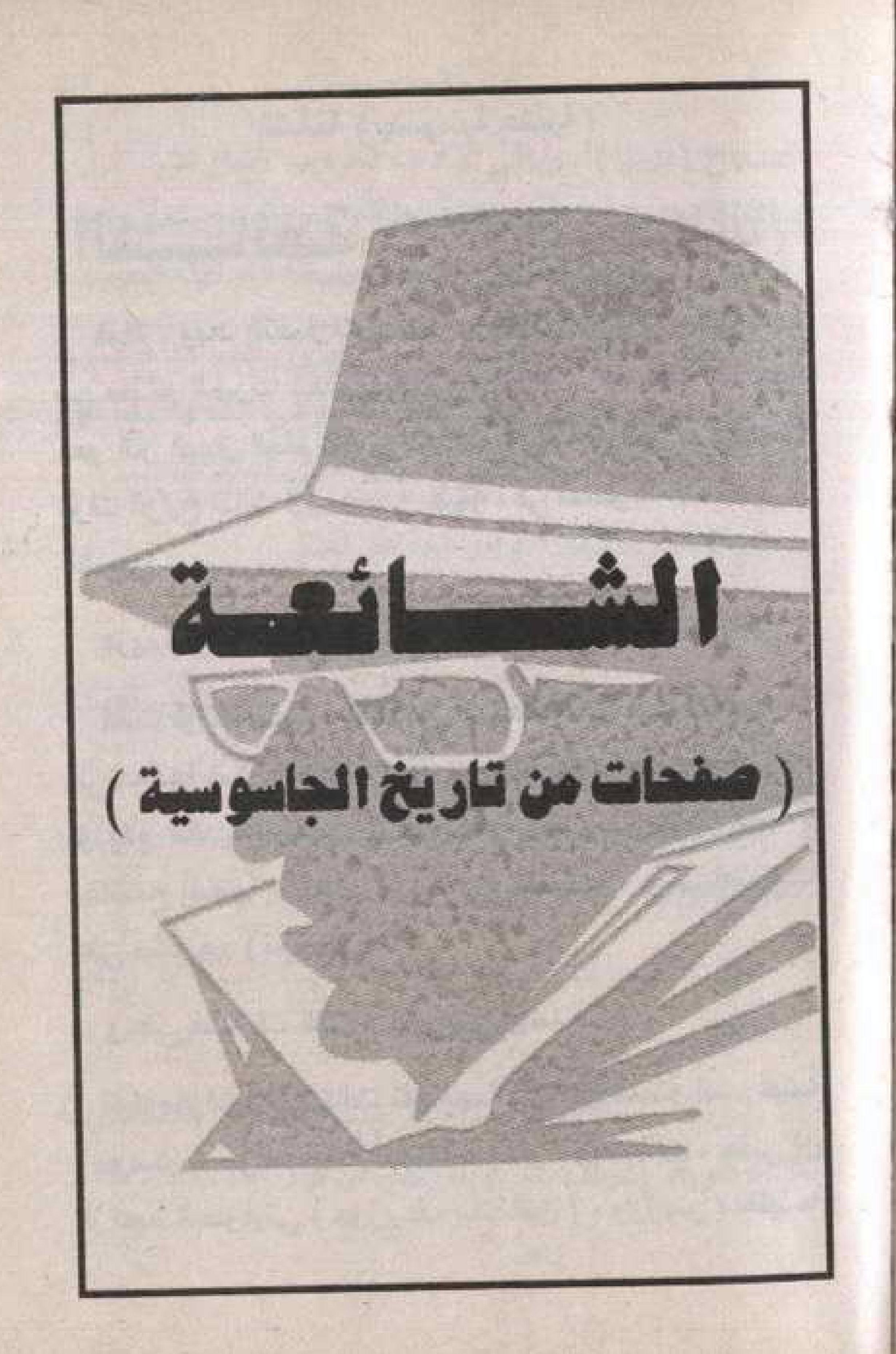
هى استخبارت خاصة ، تستمد من المصادر الأجنبية المتعلقة بالكفاءات والمعدات التقنية .

ولقد ظهرت المخابرات التقنية لأولّ مرة ، فى خلال الحرب العالمية الثانية ، عندما أنشأ كل من الجيش الألمانى والبريطانى وحدات متخصصة ، ترافق أو تتبع وحدات الهجوم ؛ لمصادرة المواد التقنية التى يمكن أن تخلفها الوحدات المهزومة أو المنسحبة خلفها ، كما نظّم الجيش الأمريكى مهمة (إلسوس) ؛ لمصادرة معدات العدو المتعلقة بتطوير القنبلة الذرية ، من الجانب الألمانى ، مما كان له أكبر الأثر ، فى تطوير صناعة القنبلة ، فى الولايات

المتحدة الأمريكية ، وسرعة استخدامها ، قبل أن يكمل الألمان أبحاثهم حولها .

وخلال الحرب الباردة توسعت الاستخبارات التقنية ، لتشمل جمع الاستخبارات ، من خلال أجهزة الكمبيوتر ، والمجسات الإليكترونية ، والأقمار الصناعية والتصوير الجوى ، بوساطة طائرات التجسس ، أو غيرها .

وتتميز الاستخبارات التقنية باعتمادها الكامل على التكنولوجيا ؛ فهى لا تحتاج إلى جواسيس أو عملاء من البشر ، إلا فى حالات نادرة للغاية ، أو للقيام بخطوات خاصة ، تقف أمامها التكنولوجيا عاجزة ، كسرقة مفتاح تشغيل ، أو الحصول على كود سرى ، أو معرفة مواضع أدوات تكنولوجية مخفاة بمهارة ، وفيما عدا هذا فهى لا تلجأ إلى العوامل البشرية إجمالاً ، أو بصورة ضئيلة إلى حد كبير ، ومن الطبيعى ، والحال هكذا ، أن تتباين نسبة



استخدامات أجهزة المخابرات المختلفة ، فى كل بقاع العالم ، لهذا النوع من الاستخبارات وفقًا لقدراتها ، وطبيعتها ، ومدى حاجتها إليها .

* * *

الشائعة
(جاسوسية عالمية)

فجأة ، وبعد انتصارات ساحقة ، حققتها الجيوش النازية ، مع مطلع الحرب العالمية الثانية (٣٩ _ ١٩٤٥م) ، على نحو أثار انبهار العالم كله ، ودهشته ، وفزعه أيضًا ، واجهت قوات الرايخ الثالث أول هزيمة عنيفة ، فى مسارها الاستعمارى الشرس ..

هزيمة وسط ثلوج الاتحاد السوفيتى ..

كانت قوات الجيش الألمانى قد حققت انتصارات قوية ، فى حملتها ضد السوفيت ، التى حملت اسم (بارباروسا) ، أو (ذو اللحية الحمراء) ، وراحت تتقدم بسرعة مدهشة ، وتكتسح أمامها القوات الروسية اكتساحًا ، حتى أصبحت على مشارف (موسكو) ..

وعلى مشارف الشتاء الروسى أيضًا ..

كيلومترات قليلة كانت تفصلها عن العاصمة السوفيتية (موسكو) ، والمقاومة أمامها تنهار ، وتتراجع ، حتى إن الزعيم السوفيتى (جوزيف ستالين) ، ووزير داخليته

السفاح (بيريا) ، وباقى قيادات الحزب الشيوعى ، قرروا مغادرة العاصمة ، إلى منطقة آمنة ، لم يفصح عنها قط ، باعتبار أن سقوطها قد صار وشيكًا ، ومسألة أيام قليلة فحسب ..

قادة القوات النازية أنفسهم ، كانوا يعتبرون أنهم قد انتصروا بالفعل ، وحطموا إلى الأبد الخطر الشيوعى ، الذى بدا لهم أكبر خطر يواجه سيطرتهم المرتقبة على العالم كله ..

ثم فجأة وصلتهم الأوامر بإيقاف القتال ..

وكانت صدمة ما بعدها صدمة ..

فبكل القواعد المنطقية والعسكرية ، لم يكن من الممكن أبدًا إيقاف المعركة ، فى تلك المرحلة بالتحديد ..

فالسوفيت ينهزمون ويتراجعون ، على طول الخط والشتاء على الأبواب ، والقوات النازية وسط الجليد بالفعل ..

الجليد السوفيتى ، الذى طالما التهم الغزاة بلا رحمة أو شفقة ..

وبكل ما ملء قلوبهم ، من ذعر وذهول ، حاول قادة النازية إقناع الفوهلر (أدولف هتلر) بالتراجع عن قرار إيقاف القتال هذا ..

بل حاولا حتى أن يفهموه ..

ويستوعبوه ..

أو يهضموه ..

ولقد شرحوا للفوهلر كل العواقب المحتملة والمنتظرة ..

بمنتهى الدقة ، وبكل التفاصيل ..

فالتوقف لحظتها ، كان سيمنح السوفيت فرصة لالتقاط أنفاسهم ، وإعادة تنظيم صفوفهم ، ودراسة خططهم ، بل والسعى لشن هجوم مضاد عنيف أيضًا ..

والأدهى أن هذا سيحدث ، والسوفيت محصنون فى عاصمتهم ، وسط الدفء والأمان ، فى حين تكون القوات النازية محاصرة بالثلوج ، والجليد ، وعارية ، فى درجات برودة قد تبلغ العشرين تحت الصفر ..

وهذا يعنى موقفًا غاية فى الغرابة ، لم تشهده أية حروب من قبل ..

فالمهزوم ينعم بكل المميزات ، فى دفء منزله ، والمنتصر يرتجف عاريًا تحت برد الشتاء القارس ..

وفى صمت صارم ، استمع (هتلر) لقادته ومعاونيه ..

وفى إصرار عنيد ، أكد قراره بوقف القتال على الجبهة السوفيتية فورًا ، ونقل الحرب بأوجها ، إلى الجبهة البريطانية ..

ولأنهم لايملكون سوى هذا ، أطاع جنرالات النازية أوامر الفوهلر ، وأوقفوا القتال تمامًا ، فى الجبهة السوفيتية ..

وفى الوقت ذاته ، تعرَّضت العاصمة البريطانية (لندن) لأعنف موجات القصف ، منذ بداية الحرب ..

وفى الوقت الذى حار فيه الكل فى تفسير القرار العجيب ، كان (هتلر) يجتمع بالجنرال (هملر) ، قائد (الجستابو) ، ومدير المخابرات الألمانية ، لمطالعة كل البيانات التى وردت عبر شبكة من الجواسيس والعملاء ، انتشرت فى كل أنحاء (أوروبا) ، والتى اجتمعت كلها على أمر واحد ..

البريطانيون على وشك التوصُّل إلى سلاح رهيب ، قادر على إفناء (ألمانيا) النازية كلها بضربة واحدة ، فى غضون أسابيع قليلة ..

كانت كل المصادر تنقل الخبر نفسه ، على نحو لا يمكن تجاهله أو إنكاره أو بشكل جعله أقرب إلى الحقيقة المطلقة ،

على الرغم من أنه لايوجد دليل واحد على صحته .. وبمنتهى الحزم ، قال (هتلر) :

- لا بد من حسم هذا الأمر بأقصى سرعة يا جنرال (هملر) .. فلو أن البريطانيين توصلوا إلى ذلك السلاح ، ستكون نهاية الرايخ الثالث .

أجابه (هملر) فى حماس :

- اطمئن أيها الفوهلر العظيم .. لقد أطلقنا صفوة عملائنا ، فى قلب المجتمع البريطانى ؛ لحسم هذا الأمر ، والتوصّل إلى ذلك السلاح ، بل ولدينا فرقة من أفضل رجال (الكوماندوز) عندنا ، متأهبة للانطلاق ، فور تحديد موقع إنتاج ذلك السلاح ؛ لتدميره بلا رجعة .

انعقد حاجبا الفوهلر ، وهو يقول فى صرامة :

- لن تكون هذه بالمهمة السهلة .

شدّ (هملر) قامته ، وهو يجيب ، فى حماس أكثر :

- الرجال يفضلون الموت على فشلها أيها الفوهلر .

هزّ (هتلر) رأسه فى ارتياح واثق ، وهو يغمغم :

- عظيم .. عظيم ..

- ثم شدّ قامته بدوره ، مضيفًا بكل الصرامة :

- أريد حسم هذا الأمر ، قبل نهاية الأسبوع يا (هملر) .. هل تفهم ؟! قبل نهاية الأسبوع .

وبكل الثقة ، أجابه (هملر) :

- اطمئن إيها الفوهلر .. اطمئن ..

وفور خروجه من مكتب الزعيم النازى ، بث (هملر) شخصيًا ، رسالة لاسلكية عاجلة ، إلى واحد من أهم عملاء النازى ، فى قلب العاصمة البريطانية ..

وما أن تلقى الرسالة ، حتى تحرّك العميل ، الذى سنطلق عليه هنا اسم (جون) ؛ لجمع المعلومات المطلوبة ..

ولأنه يعمل فى موقع شديد الحساسية ، فى وزارة العدل البريطانية ، بدأ ذلك العميل (فوق المستوى) ، فى جمع كل المعلومات الممكنة ، عن ذلك السلاح الرهيب ، الذى يوشك البريطانيون على ابتكاره ..

« لقد كشف نفسه » ..

نطقها رجل المخابرات البريطانى ، الذى أطلقت عليه الوثائق اسم (إدوارد) ، فى ارتياح شديد ، وهو يراجع تقارير الفريق الخاص ، الذى اصطفاه للتعامل مع قضية (السلاح الخاص) ..

وعلى رأس مائدة الاجتماعات ، قال (إدوارد) متابعًا :

ـ اللعبة أثمرت ، على نحو يفوق كل توقعاتنا يا رجل ، فالشائعة التى أطلقناها ، بمنتهى العناية والصبر ، أتت ثمارها ، وحققت أكثر مما تمنيناه فالنازيون أوقفوا هجومهم على (موسكو) ، فى مرحلة شديدة الحساسية والخطورة ، وجاسوسهم هنا كشف نفسه ، بسعيه خلف معلومات ، لا وجود لها فى الواقع .

سأله أحد الرجال فى اهتمام :

ـ هل نلقى القبض عليه مباشرة ؟!

هزَّ (إدوارد) رأسه نفيًا ، وهو يقول :

ـ بل سنسعى للتعاون معه .

خُيِّل للرجال أنهم لم يستوعبوا العبارة جيدًا ، فتساءل أحدهم فى حذر :

ـ تعنى أننا سندفعه للتعاون معنا يا سيِّدى ؟!

هزَّ (إدوارد) رأسه نفيًا بحزم أكبر ، وهو يقول :

ـ بل سنسعى نحن للتعاون معه ، فيما يجمعه من معلومات عن ذلك السلاح الوهمى ، وسنزوده بكل ما يؤيد الفكرة ، ويؤكدها فى ذهن النازيين .

قال رجل آخر فى اعتراض :

ـ ولكن هذا يدفعهم لمضاعفة شراسة قصفهم لنا .

ابتسم (إدوارد) ابتسامة غامضة ، وهو يقول :

ـ مؤقتًا يا رجل .. مؤقتًا ..

ولم يستوعب الرجال تمامًا ما يعنيه (إدوارد) بقوله هذا ..

ولكنهم استمعوا إلى الخطة ..

ونفذوها بمنتهى الدقة ..

وعندما سعى الجاسوس (جون) لجمع المعلومات ، متصورًا أنه يعمل بمنتهى السرية والبراعة ، وضع البريطانيون أمامه كل ما يؤيد فكرة السلاح الوهمى ..

أوامر القيادة العسكرية بإجراء الأبحاث عليه ..

موعد بدء إنتاجه ..

وحتى الموقع السرى ، الذى يتم فيه تصنيعه ..

الشىء الوحيد ، الذى لم يستطع (جون) التوصل إليه قط ، هو تصميمات ذلك السلاح الوهمى ، أو طبيعته ..

إلا أن ما أرسله إلى (برلين) كان كافيًا ، ليجتمع الفوهلر مرة أخرى بالجنرال (هملر) ، الذى هتف فى حماس :

ـ كنت على حق كالمعتاد أيها الفوهلر العظيم .

هزَّ (هتلر) رأسه ، قائلاً :

ـ أعلم هذا .. أعلم هذا .

ثم أصدر أوامره بالهجوم على موقع تصنيع السلاح السرى البريطانى ..

الوهمى ..

وفى فجر اليوم التالى مباشرة ، حلقت طائرة ألمانية على ارتفاع كبير ، فوق الريف البريطانى ، لتسقط فريقًا من

أقوى رجال (العاصمة) الألمان ، فوق ذلك الموقع ، الذى حدده الجاسوس (جون) ..

كانوا ستة من أقوى مقاتلى الجيش النازى ، امتلئوا بالحماس والقوة ، وهبطوا وسط الريف البريطانى ، و ....

وفجأة ، وجدوا أنفسهم وسط كمين عنيف ..

ومن كل مكان ، انهمرت عليهم رصاصات القوات البريطانية ، بلا هوادة ..

وهنا ، تعترف الوثائق البريطانية ، التى تم نشرها بعد مرور نصف القرن ، على نهاية الحرب العالمية الثانية ، بأن أولئك المقاتلين النازيين قد قاتلوا ببسالة منقطعة النظير ، وحتى آخر قطرة دم ..

فبعد ثلاث ساعات من القتال المتواصل ، تم أسر اثنين فقط بقيا على قيد الحياة ، أحدهما مات متأثرًا بجراحه ، بعد ست ساعات من الأسر ..

ولأن الأمر لايمكن إخفاؤه ، قرَّرت المخابرات البريطانية إنهاء العملية الخاصة بالجاسوس (جون) ، الذى يعتبر الثغرة الوحيدة فى العملية ، بعد أن انتهى دوره غير المباشر فيها ..

ولأن القبض عليه أيضًا لن يمكن إخفاؤه ، اتخذ البريطانيون لشأنه قرارًا بالغ الحساسية ..

وبالغ الخطورة أيضًا ..

ففى الثانية ظهرًا ، وبعد ساعة واحدة تقريبًا ، من تصفية فرقة الكوماندوز البريطانية ، تعرَّض (جون) لحادث سيارة (متعمد) ، أودى بحياته ، قبل أن يبث أية رسالة لاسلكية جديدة إلى (برلين) ..

أما (هتلر) وجنراله (هملر) ، فكل ما بلغهما هو أن عملية تدمير السلاح البريطانى الرهيب قد فشلت ..

وانشغل كلاهما فى وضع خطة حملة جديدة ، تمنع ذلك السلاح الوهمى الرهيب ؛ من الخروج إلى النور ..

انشغلا حتى عما يحدث فى الجبهة السوفيتيه ..

فهناك ، تحققت كل مخاوف القادة الألمان ..

وإلى أقصى حد ..

فالسوفيت بالفعل التقطوا أنفاسهم ، بعد توقف الهجوم الألمانى ، حتى إن (ستالين) وقيادته ألقوا فكرة مغادرة

العاصمة ، وبقوا ؛ لإعادة تنظيم الصفوف ، وبث روح الحماسة والبطولة فى النفوس ..

أما شتاء (موسكو) ، فقد قام بدوره خير قيام ؛ إذ لم تنخفض درجات البرودة إلى الثلاثين تحت الصفر ، كما تصوَّر النازيون ، وإنما بلغت أقصى درجات الانخفاض ، منذ نصف قرن ، إذ انهارت حتى الخمسين تحت الصفر ..

ولم يكن جنود وضباط النازية مؤهلين لاحتمال هذه البرودة الرهيبة ..

ولم تكن أزياؤهم الأنيقة قادرة على هذا ..

لذا فقد تجمدت أطرافهم ، وتيبست أقدامهم فى أحذيتهم ..

بل وتجمد بولهم ، فور خروجه من أجسادهم ..

وكانت صدمة للجنود النازيين ، وكارثة ما بعدها كارثة ، أضيفت إليها تلك الهجمات العنيفة ، التى شنتها قوات الكوماندوز السوفيتية البيضاء ، التى كانت تبرز فجأة من وسط الثلوج ، لتكبد النازيين خسائر فادحة ..

وانهارت الروح المعنوية لجنود النازية ..

وانهارت معها قدراتهم القتالية ..

وهنا ، انقض الجيش السوفيتى ، بكل قوته ، وبثيابه المصنوعة من الفراء ، والتى تفتقر إلى أبسط درجات الأناقة ، ولكنها تمنح أصحابها الدفء والأمان ؛ والقوة على مواجهة العدو ..

وانهزمت القوات النازية ..

واندحرت ..

ولأوّل مرة ، راحت تنسحب .. وتنسحب .. وتنسحب ..

ومع صدمة الهزيمة المريرة ، وصلت إلى (هتلر) معلومات جديدة مؤكدة ، من جاسوس آخر أرفع مستوى ، بأنه لا وجود إطلاقًا لذلك السلاح البريطانى ..

وأن كل ما غير مسار الحرب العالمية الثانية ، كان مجرد شائعة ..

ولأنهم لم يعتادوا الهزيمة قط ، تخبط جنرالات النازية ، وارتبكوا ، وتطلّعوا إلى الفوهلر ، فى انتظار أوامره ، لإنقاذ ما يمكن إنقاذه ..

ولكن الفوهلر كان أكثرهم اضطرابًا ، وعدم تقبل للهزيمة ..

لذا ، فقد أصدر أوامره بالصمود ، وعدم الانسحاب ، مهما كانت الأسباب ، ومهما كان الثمن ..

وبناءً على أوامره ، على عكس كل ما تفرضه المعطيات ، وما يفرضه واقع ساحة القتال ، توقفت القوات النازية عن انسحابها ، لتقاوم ، وتقاتل ..

وتتحطَّم ..

نعم .. لقد تحطَّمت ، وبعنف ، أمام الجيش السوفيتى ، الذى استعاد قوته ، وحماسته ، وقدرته على الحصار ، والقتال ، والضرب بلا حدود ..

وفى قبضة السوفيت ، سقط عشرات الآلاف من الأسرى النازيين ، لتسقط معهم الروح المعنوية الألمانية أكثر ..

وأكثر .. وأكثر ..

وفى الوقت الذى تلقى فيه (إدوارد) تهنئة رؤسائه ، على خطته العبقرية ، وشائعته المدهشة ، التى غيرت مسار الحرب كلها ، كانت قوات الحلفاء تهبط فى (نورماندى) ، لتدق أكبر مسمار ، فى نعش الرايخ الثالث كله ..

وبسرعة لم يتخيلها أحد ، راح الجيش النازى يتحطَّم وينهار ، وراحت القوات الأمريكية ، والبريطانية تقترب من غرب (برلين) ، فى حين شق السوفيت طريقهم نحو شرقها ..

وسقطت (ألمانيا) بين المطرقة والسندان ..

وانهار الرايخ الثالث تمامًا ..

وفى ملاذه ووكره الأخير ، أطلق (هتلر) الرصاص على رأسه ، وانتحر مع كبار قادته وجنرالاته ، وعلى رأسهم (هملر) نفسه ، دون أن يدرك أحدهم ، حتى اللحظة الأخيرة ، إنه قد خسر حربًا عالمية بسبب شائعة ..

شائعة بريطانية ..

مبتكرة .

★ ★ ★

موسوعة الجاسوسية :

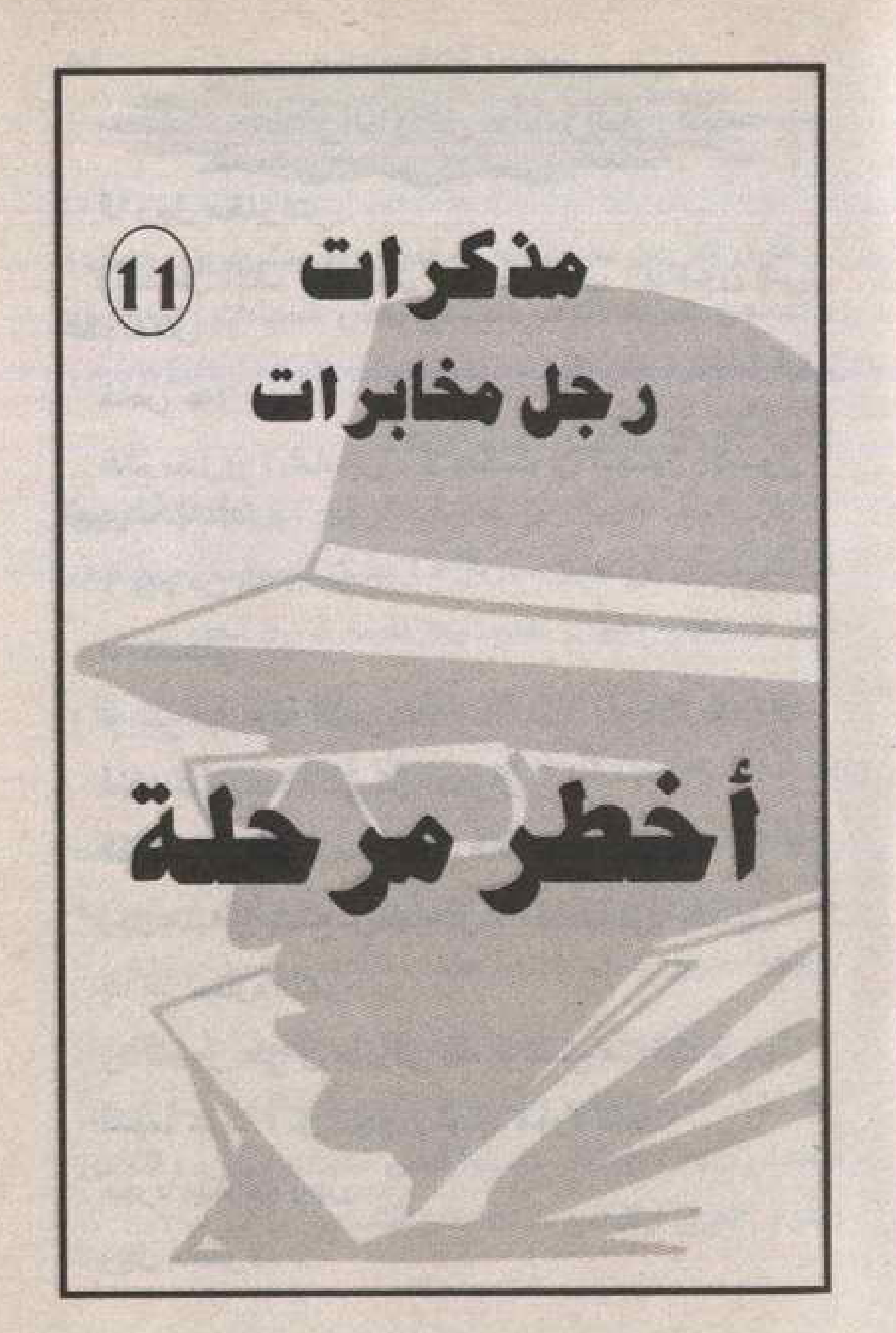
أمتورج

Amtorg

منظمة (تغطية) سوفيتية ، لعملية تجسس فى (الولايات المتحدة) ، فى خلال العشرينات والثلاثينات .

تعود بدايات (أمتورج) إلى العام ١٩٢١م ، عندما سافر د. « آرماندهامر » ، المتخرج لتوه من كلية الأطباء والجراحين بجامعة (كولومبيا) ، إلى (موسكو) ، مع خطاب تقديم إلى (لينين) ، وكان (أرماند) ابنا لـ د. (يوليوس هامر) ، اشتراكى روسى - أمريكى وصديق (لينين) ، امتلك أيضًا شركة صيدلة ، وكان (أرماند) يتمنى جنى دين بـ ١٥٠ ألف دولار ، كانت تدين به الحكومة السوفيتية لوالده ؛ نظير الأدوية التى هربت داخل الدولة ، أثناء حصار الحلفاء لـ (روسيا) ..

سهل (لينين) لـ (أرماند هامر) ترتيبات أعمال طويلة ومربحة ، مع (الاتحاد السوفيتى) ، فى عام ١٩٢٤م ، وأدى



هذا إلى المغامرة فى مشروع بين السوفيت و(هامر) ، هـو (منظمة التجارة الأمريكية) ..

كـان (فيليكس أدمونـدوفيتش دزيرسـينسـكى) ـ المدير المؤسس لـ (تشيكا) ـ أحد المسئولين ، الذين ساعدوا (هامر) ، وعمـل كرئيس لمجلس لجنـة الامتيازات ، التى ساعدت فـى إنشاء هذا المشروع المشترك ..

بهذا ، كان جهـاز المخابرات السوفيتى يُنى فى (أمتورج) من البداية ، وبالنسبة لـ (هامر) كانت (أمتورج) صفقـة عمل ، أما بالنسبة للسوفيت ، فقد كانت سبيلاً للقيام بثلاثـة مهمـات : حشد الاعتراف الدبلوماسى بالاتحاد السوفيتى ؛ وإدارة صفقـات وتجارة شرعية ؛ والتجسس ..

كثير من مسئولى (أمتورج) كانوا ضباط مخابرات سـوفيت ؛ يسعون لسرقة أسرار صناعية وعسكرية ، وتجنيد أمريكيين ، خاصة أعضـاء الحـزب الشيوعى فـى (الولايات المتحدة) كعملاء ، وظلت (أمورج) نشطة لعدة سنوات ، بعد اعتراف (الولايات المتحدة) بالنظام السوفيتى فى ١٩٣٣م .

★ ★ ★



أنا رجل مخابرات ..

واحد من آلاف ، فى كل أنحاء الأرض ، ينتمون إلى عالم خاص ..

خاص جدًا

عالم سرى ، غامض ، لا يمكنك أن تتجاوز الأسوار المحيطة به قط ..

لا يهم من أنا ..

ما جنسيتى ..

أو إلى أية دولة أنتمى ..

فالقواعد واحدة ، فى كل الأحوال ..

القواعد اللازمة لتصنع رجل مخابرات ..

رجل يمكنه أن يصنع من نفسه درعًا ، لحماية دولة بأكملها ..

إذا ما استلزم الأمر ..

ولا تتصورً حتى أن مذكراتى هذه قد تصنع منك ذلك الرجل ..

فمهما حوت ، لن تتجاوز كونها مجرَّد كلمات ..

مجرَّد مذكرات رجل ..

رجل مخابرات .

١١ ـ أخطر مرحلة ..

طوال أكثر من سبع ساعات متصلة ، اجتمعت بفريق العمل ، وعدد من خبراء المخابرات ، فى بعض المجالات ؛ لمناقشة كيفية السيطرة على الأمور ، عندما نسمح للجاسوس بالخروج ، ولقاء الطرف الآخر ، خارج الحدود ..

كان هناك احتمال أن ينكشف الرجل ، ويدرك الآخرون أنه قد تحوَّل إلى عميل مزدوج ، يعمل لحسابنا ، واحتمال آخر أن ينقلب علينا ، عندما يجد نفسه خارج الحدود ..

ولما كان الاحتمال الأوَّل أكثر خطورة ، فقد بدأنا به مناقشاتنا ، ورحنا ندرسه من كل الوجوه ، وبكل الصور الممكنة ..

ولأن عريض المنكبين أكثرنا خبرة وحنكة ، فقد اقتنعنا جميعًا بوجهة نظره ، عندما أكد أنهم سيحاولون استجوابه بوساطة جهاز كشف الكذب حتمًا ؛ لتأكيد استمرار ولائه ..

وفى حالات مماثلة ، نقوم عادة بتدريب العميل على التعامل مع جهاز كشف الكذب ، الذى لا يخرج عن كونه آلة قياس متعددة (Poly Gram) ، مهمتها قياس معدلات النبض والتنفس وإفراز العرق ؛ لتحديد ما إذا كان الشخص يكذب أم لا ..

وكل أجهزة المخابرات تدرب رجالها على التعامل مع تلك الأجهزة ، والسيطرة على أعصابهم لخداعها ، أو مراوغة الأسئلة ، بإجابات صحيحة ، ولكنها غير مباشرة ، ولكن فى حالتنا هذه ، كان هذا مستحيلاً تمامًا ..

فالاستدعاء جاء محددًا مهلة قصيرة جدًا للقاء ، بالإضافة إلى أن طبيعة العميل نفسه كانت عصبية ، قابلة للانهيار ، مع الضغوط الشديدة ، التى سيمارسونها عليه حتمًا ..

وكل هذا يعنى أنه سيسقط فى قبضتهم ، دون أدنى شك ..

ولكن رفض ذهابه للقائهم كان يعنى تأكيد شكوكهم ، وحذفه تمامًا من منطقة ثقتهم ، وانعدام فائدته مائة فى المائة ..

لذا كان الأمر معقدًا ..

وكان الاجتماع طويلاً ..

للغاية ..

ولكن مع نسمات الفجر الأولى ، كنا قد وضعنا الخطوط العريضة ، لخطة ذات ثلاث خطوات ..

وبعد جلسة طويلة مع الجاسوس ، سمحنا له بالسفر ..

وفى تلك الدولة الأجنبية ، التقى به رجال مخابرات الخصم ، واستقبلوه بالتقدير والترحاب ، ثم اصطحبوه فورًا إلى طائرة أخرى ، حملتهم مباشرة إلى دولتهم الأم ..

وعندما استقبلوه فى مكاتبهم الرئيسية ، قام العميل نفسه بتنفيذ الخطوة الأولى من الخطة ، عندما فاجأهم بكم من المعلومات الحديثة ، التى بهرتهم ، وجعلتهم مثبتين على مقاعدهم لربع ساعة كاملة ، قبل أن يخبروه بحماس أنه ما زال بالفعل أفضل رجالهم فى المنطقة ..

ولكن هذا لم يمنعهم من تحديد موعد معه ، فى صباح اليوم التالى ، لاختبار كشف الكذب ، بعد أن أكدوا له أنه لا أحد يفلت منه أو ينجح فى خداعه أبدًا ..

وفى المنزل الصغير ، الذى قضى فيه ليلة ، نفذ العميل الخطوة الثانية ، وفقًا لتوجيهات الخبراء الدقيقة ..

فوفقًا للمعلومات ، التى جمعناها من مصادر مختلفة ، كنا نعلم أنهم سيجرون الاختبار فى السابعة والنصف صباحًا ، فى مختبرهم الرئيسى ، أسفل مبنى مخابراتهم ، لذا ، ففى السادسة تقريبًا ، أخرج هو من جيب خفى فى حزامه عقارًا

خاصًا ، تناوله مع قليل من الماء ؛ لتهدئة أعصابه ، وإزالة كل توتراته الداخلية ..

أما الخطوة الثالثة ، فكانت أعقدها ..

فعندما هبط العميل من ذلك المنزل الصغير ، ليستقل سيارة رجال مخابرات الخصم ، ظهر عند الناصية فجأة شاب نزق ، ينطلق بدراجته فى تهور واضح ، وبتوقيت دقيق بارع ، انحرف الشاب فجأة ، ووثب بدراجته فوق الإفريز ، ثم ارتطم بالعميل ، وأوقعه أرضًا فى عنف ، قبل أن يرتبك ، ويعتذر له وللجميع فى خفوت وذعر ..

ولأن الوقت لا يكفى للدخول فى شجار جانبى ، فقد اكتفى الرجال بتعنيفه وزجره ، ثم اصطحبوا العميل معهم ، وتركوا الشاب خلفهم ، يبتسم ابتسامة خبيثة ظافرة ، وهو ينطلق بدراجته مبتعدًا ..

أما العميل نفسه ، فقد أبدى تألمه من عنف سقوطه ، وأبدى الكثير من التوتر لما حدث ، حتى بلغ المختبر ، وجلس إلى جهاز كشف الكذب ، والكل يدرك ما أصابه فى الصباح ..

وبدأ الاختبار ..

ومع العقار المهدئ ، وتظاهره بالتوتر والألم ، من جراء إصابته ، جاءت النتائج كلها مرتبكة نوعًا ما ، ولا يمكن تحديد موقفها بدقة ، لذا فقد بدأ الرجال فى تفسيرها ، وفقًا لمعطيات الموقف ..

ومع المعلومات الثمينة التى أحضرها ، والإصابة التى أصابته أمام عيونهم ، على نحو بدا عشوائيًا تمامًا ، كانوا أكثر ميلاً إلى النظرة التفاؤلية فى تفسير الأمور ، مما أقنعهم بولائه ..

وعبر مصادرنا الأخرى ، علمنا أن الرجل قد اجتاز اختبار كشف الكذب بنجاح ، وأن خطتنا الثلاثية قد أفلحت تمامًا ، وبمنتهى الدقة ..

ولا أحد فى الدنيا كلها يمكنه أن يتصوَّر مدى سعادتى وارتياحى ، بنجاح لعبتى الكبرى الأولى فى هذا العالم ..

وربما كان أكثر ما أسعدنى هو تلك الابتسامة ، التى ملأت وجه عريض المنكبين ، وهو يصافحنى ، قائلاً :

- مبروك .

لحظتها رقص قلبى فرحًا ، وحملت ملامحى كل ما يعتمل فى نفسى ، وأنا أدخل مكتبى مع وجـه القنفذ ، الذى بدا هادئًا رصينًا كعادتـه ، وكأنما الأمر لا يعنيـه ، فهتفت بـه فـى حماس :

ـ نجحنا .. انتصرنا فى أوّل مواجهة كبرى .

كنت أعلم أنه رجل عسير الانفعال ، إلا أننى ، وعلى الرغم من هذا ، كنت أتمنى أن يمنحنى ولو لمحة من الارتياح ، تعبِّر عن النجاح ، إلا أنه ، وعلى الرغم من هذا ، التفت إلىَّ بكل رصانته ، التى تستفز مشاعرى دومًا ، وقال :

ـ ولكن العملية لم تنته بعد .

انعقد حاجباى ، وأنا أقول ، فى شىء من العصبية :

ـ الرجل تجاوز اختبار كشف الكذب .

هزَّ كتفيه فى هدوء ، قائلاً :

ـ ولكنه ما زال فى أرضهم ..

تفجَّرت عبارته فى تلافيف مخى كالقنبلة ، ونسفت كل شعور بالنصر دفعة واحدة ، لتضع بدلاً منه إحساسًا رهيبًا بالقلق ، جعلنى أغمغم :

ـ أنت على حق ..

ومع تبخر سعادتى ، عدت أجلس خلف مكتبى وأعيد دراساتى وحساباتى مرة أخرى ، قبل أن أهب هاتفًا :

ـ اجتماع .

لم يكن أفراد مجموعة العمل قد استقروا خلف مكاتبهم بالفعل ، عندما وصلهم الاستدعاء ، فعادوا إلى حجرة الاجتماعات فى قلق متسائل ، والتفوا حول المائدة ، لأحتل أنا قمتها ، قائلاً :

ـ رجلنا ما زال فى أرض العدو .

كنت أتوقع أن تبدأ عبارتى هذه دورة جديدة ، من المناقشات ، والحوارات ، والدراسات ، إلا أننى فوجئت بعريض المنكبين يبتسم ، قائلاً فى هدوء :

ـ الرجل سيعود إلى القاهرة ، فى طائرة التاسعة مساءً .

حدّقت فى وجهه مندهشًا ومتوترًا ، فخفض عينيه ، متمتمًا :

ـ أنت لم تسأل .

وكان درسًا قاسيًا ..

ولكننى استوعبته جيدًا ..

بل الواقع أننى وجدت فيما حدث عدة دروس ..

فلا ينبغى أبدًا أن أحصد النجاح ، قبل أن تصبح نتائجه فى قبضتى بالفعل .

ومن الضرورى أيضًا ألا أتوقف عند جولة ناجحة ، قبل أن تنتهى المباراة كلها ..

ولا تجاهل حتى لأدق أدق التفاصيل ..

أو أتوقف عن متابعة المهمة لحظة واحدة ، مهما بدت ناجحة أو مطمئنة ..

والأهم من كل هذا أن أسيطر على مشاعرى وانفعالاتى ، حتى آخر لحظة ، وحتى لآخر العمر أيضًا ..

وأمام مجموعة العمل ، اعترفت بكل الأخطاء التى ارتكبتها ، وطلبت من الجميع تسجيلها ومناقشتها ، حتى لا تتكرّر أبدًا ، منى أو من أى زميل آخر ..

ثم غادرت عائدًا إلى مكتبى ..

وهناك ، جلست صامتًا ، أسترجع كل ما حدث ، بكافة التفاصيل ..

أسترجع بداياتى ..

وخطواتى ..

وتطوراتى ..

ونجاحاتى ..

وأخطائى أيضًا ..

ووسط كل هذا ، واصلت متابعة رحلة العميل ، حتى عاد إلى أرض الوطن ، حيث استقبلته أسرته ، واصطحبته فورًا إلى منزله ..

وحفاظًا على السرية ، ظللت وفريقى صامتين صابرين ، حتى صباح اليوم التالى ، عندما التقينا به فى مكان آمن ، وراح يروى لنا كل ما حدث له هناك ..

واستمعنا إليه نحن فى صمت ، ودون أن نقاطعه بحرف واحد ، حتى انتهى من روايته ، التى تطابقت تمامًا مع ما لدينا من معلومات ..

وكان هذا دليلاً على أن الرجل قد عاد إلى رشده ، وأنه قد استعاد ولاءه الأصلى لنا ، مع ثقة الطرف الآخر التامة ..

وفى عالمنا ، يعتبر هذا نجاحًا كاملاً ..

لذا ، فقد عدت إلى مكتبى ؛ لأكتب تقريرى ، وأقدمه إلى رؤسائى ..

ولست أدرى كم استغرق هذا من وقت ، فقد انهمكت فى الأمر تمامًا ، حتى فوجئت بعريض المنكبين أمامى ، يبتسم ابتسامة واضحة ..

وما أن أطل التساؤل من عينىَّ ، حتى مال عريض المنكبين نحوى ، ومد يده إلىَّ ، قائلاً :

- دعنى أهنئك .

صافحته متسائلاً :

- على نجاح العملية ؟!

هزَّ رأسه نفيًا فى صمت ، فى حين أجاب وجه القنفذ ، وهو يمد يده إلىَّ بدوره ، وابتسامته (النادرة) لم تفارق شفتيه بعد :

- بل على اجتيازك أخطر مرحلة ..

تضاعف التساؤل فى عينىَّ ، فتابع عريض المنكبين :

- أهلاً بك ، فى عالم المخابرات .

وهنا تحوّل التساؤل إلى بريق ..

وإلى فرحة عارمة ..

لقد فهمت ما يعنيانه ..

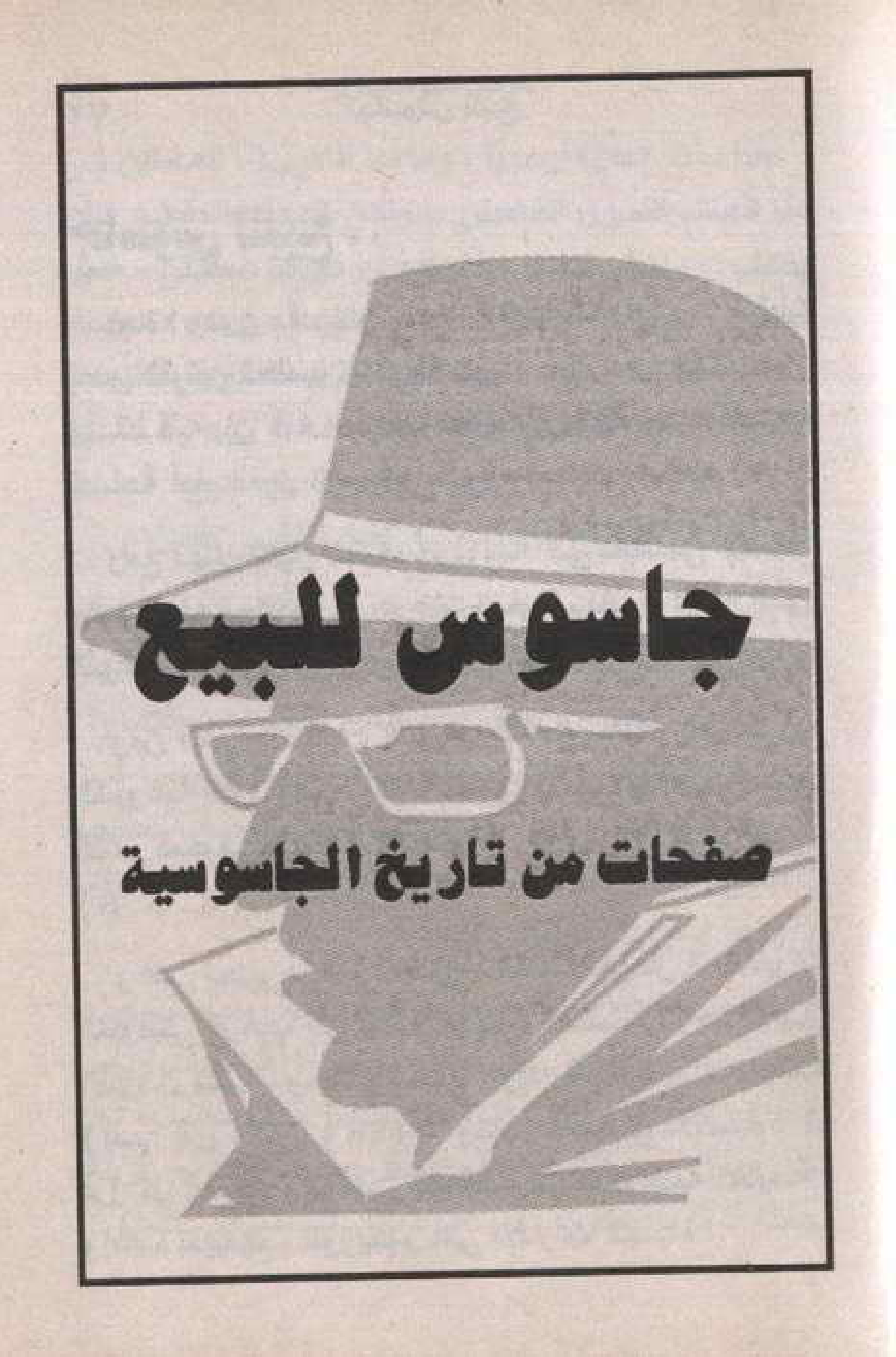
فاليوم فقط ، أصبحت أستحق ذلك اللقب ، الذى سعيت لحمله دومًا ..

والذى أحمله الآن عن جدارة ..

لقب : رجل المخابرات ..

★ ★ ★

[تمت]



جاسوس للبيع ..

فجأة ! ودون مقدمات ، انهار الاتحاد السوفيتى .. سقطت إحدى القوتين العظميين سقوطًا مدويًا ، صك آذان العالم كله ، وأسقط قلبه بين أقدامه ، بعدما اختلَّ ميزان القوى ، وأفسحت الساحة أمام الغول الأمريكى ، ليرتع فيها كيفما يحلو له ..

ومع انهيار الكيان الضخم ، وذوبانه فى سياستى الإصلاح والمصارحة ، وتفكُّكه إلى دويلات صغيرة ، تغيَّرت داخله أمور كثيرة عديدة ، لم يتصوَّر أحدًا قديمًا إمكانية تغيرها أو سقوطها ..

ومن أشهر الأنظمة ، التى تهاوت مع سقوط إمبراطورية الشيوعية الأولى فى العالم ، نظامها الأمنى القمعى ، صاحب الاسم المخيف فى عالم المخابرات .. الـ (كى . جى . بى) (K . G . B) ..

وعلى نحو درامى مثير ، انقسم جهاز المخابرات السوفيتى الرهيب إلى ثلاثة أجهزة منفصلة ، وهى جهاز الأمن الرسمى ، وسلاح الحدود ، وإدارة المخابرات العامة (إف . إس . كى) (FSK) . وكإجراء طبيعى للانقسام ، تم فرز كل العملاء والعاملين بالمخابرات السوفيتية القديمة ، وإعادة تقييمهم ، لتوزيعهم على الإدارات الجديدة ..

هذا ما تم إعلانه رسميًا ، وما بدا ظاهريًا ، للعاملين فى هذا العالم السرى الغامض .. ولكن الهدف الحقيقى كان يختلف .. يختلف تمامًا .. فالواقع أن الهدف الحقيقى ، غير المعلن ، لعملية إعادة الفرز والتقييم ، كانت استبعاد العناصر الغارقة حتى أذنيها فى النظام الشيوعى القديم ، كوسيلة لتنقية الفكر ، وتطهير جهاز المخابرات ، وبدء عهد جديد ، بقواعد جديدة ، لا تندرج تحت قائمتها عملية الحرب الباردة ، أو الصراع المستمر مع القطب الغربى للصراع ..

وفى ظل هذا ، تساقط عشرات وعشرات العملاء ، ورجال المخابرات السوفيتية القدامى ، الذين تم إقصاؤهم عن الخدمة فى كل يوم بحجة أو بأخرى ، بغض النظر عن الكفاءة ، أو التاريخ القديم ، أو حتى العمليات القوية الناجحة فى السجلات السرية .. وبدا من الواضح أنها مذبحة .. مذبحة لا تبقى ولا تذر ، ولا ترحم أو تتهاون .. وهذا ما أدركه (يورى إيفان بروكوفيتش) ..

و(يورى) هذا ضابط مخابرات قديم ، يحمل رتبة كولونيل ، ويعتنق الفكر الشيوعى حتى النخاع ، وهذا ما أهَّله قديمًا لرياسة قسم العمليات الخارجية ، التى تولى بنفسه معظم عملياتها ، فى (أوروبا) و(أمريكا) ، بعد تاريخ حافل بعمليات انتحارية قوية ، جعلته أشبه بالأسطورة ، فى عالم المخابرات السوفيتى السابق ..

ولأنه رجل مخابرات مُحنَّك ، يمتلك عقلية تحليلية نادرة ، صقلتها التدريبات والخبرة ، حتى صارت قادرة على منافسة العباقرة ، فقد أدرك اللعبة كلها منذ اللحظة الأولى ، وأدرك معها أن دوره آت لا ريب ، وأن الركلة ستكون قوية إلى أقصى حد ، ولو أنه محظوظ ، فأفضل ما يمكن أن يحصل عليه هو وظيفة سخيفة ، فى مبنى حكومى إدارى عتيق .. ورجل مثله ، لم يكن ليرضى بتغيير كهذا قط .. مهما كان الثمن ..

لذا ، فقد قضى (يورى بروكوفيتش) يومًا كاملاً فى مكتبه ، دون أن ينبس ببنت شفة ، وعيناه تتطلعان فى شرود إلى نافذة زجاجية كبيرة ، تطلّ من زاوية عسيرة ، على ساحة المبنى الرئيسى للمخابرات السوفيتية ، وعقله يراجع كل المعلومات ، وأدق التفاصيل ، وكأنه يواجه عملية ، من العمليات التى قادها بنفسه من قبل ..

ولساعة ونصف الساعة بعدها ، جلس (يورى) أمام جهاز كمبيوتر حديث فى مكتبه ، تنتجه شركة أمريكية ذائعة الصيت ، وراحت أصابعه تعمل على لوحة الأزرار ، فى همة ونشاط ، دون أن تسجل أجهزة التنصُّت سوى تلك الدقات الخافتة المتتابعة .. وفى السابعة صباحًا بالضبط ، وقَّع الكولونيل (يورى بروكوفيتش)

فى دفتر الانصراف ، عند البوابة الرئيسية ، واستقل سيارته الروسية الصنع ، وانطلق بها منصرفًا .. ولكنه لم يعد إلى منزله أبدًا ..

والعجيب أن أحدًا لم ينتبه إلى هذا ، إلا فى مساء اليوم التالى ، عندما راحت زوجته تتصل بالجهاز فى قلق ، للسؤال عن زوجها ، الذى لم يعتد الاختفاء طويلاً ، دون إشعار مسبق ، أو اتصال هاتفى سريع ..

عندئذ فقط ، تردَّد السؤال ، داخل أروقة جهاز المخابرات السوفيتى ، الذى بدأ بالفعل عملية الجرد المنظم ، استعدادًا للانقلاب التام .. أين اختفى (يورى بروكوفيتش) ؟!

فى البداية ، وكرد فعل تلقائى مباشر ، تصوَّر الكبار أن (يورى) قد تعرَّض لمحاولة اختطاف أو اغتيال ، على يد مجموعة من المعارضين ، أو المناهضين للشيوعية ، والذين برزوا فى الآونة الأخيرة ، مع سقوط النظام القديم .. ولكن ، ومع البحث ، راحت تتكشَّف حقائق عديدة .. ومخيفة ، فرجل المخابرات القديم قاد سيارته الخاصة بنفسه ، حتى أطراف (موسكو) ، وتركها على مسافة كيلومترين من أحد المطارات الصغيرة ، الخاصة بجهاز المخابرات السوفيتى ..

وفى سجلات المطار ، وجد الباحثون توقيع (يورى بروكوفيتش) ، على تصريح بتسليم طائرة محدودة المدى ، لرجل مخابرات يُدعى (أليكس بودوالين) ، استقلّ الطائرة بالفعل ، وانطلق بها دون تحديد وجهة مسبقة ، ثم لم يعد بها إلى المطار أبدًا .. ومع البحث والتدقيق فى السجلات الرسمية والسرية ، لم يجد الرجال اسم (أليكس بودوالين) هذا قط ، لا بين العاملين الحاليين ، أو السابقين ، أو الذين عملوا فى أية حقبة ، من تاريخ المخابرات السوفيتية كلها ..

وهنا ، لابد من عمل تحقيقات موسّعة ، حول الاختفاء الغامض لرجل المخابرات السوفيتى الفذّ ، والانتحارى السابق (يورى بروكوفيتش) .. ونظرًا للنظم الأمنية المعقّدة والصارمة ، فى كيان مثل الاتحاد السوفيتى ، استغرق التحقيق الأوّلى يومين كاملين ، قبل أن يهرع نائب رئيس الجهاز الخطير إلى حجرة مديره (يوجين بريماكوف) ، آخر رئيس لجهاز (كى . جى . بى) ، ليعلنه والرعب يملأ كيانه ، ويتقاطر فى وضوح من كلماته ، أن (يورى بروكوفيتش) قد هرب ، ثم راح يروى ما توصل إليه المحققون من حقائق مفزعة .. فالعاملون فى ذلك المطار السرى الصغير ، التابع لجهاز

المخابرات السوفيتى ، تعرّفوا صورة (يورى بروكوفيتش) ، باعتباره (أليكس بودوالين) ، رجل المخابرات المزعوم ، الذى سرق الطائرة ، كما أن بعض محطات الرادار الأرضية أرسلت تقاريرها إلى جهاز المخابرات ، تشير إلى رصدها لطائرة صغيرة ، تابعة للجهاز ، تنطلق فى اتجاه الشمال الغربى ، وعند اعتراضها لاسلكيًا ، أرسل قائدها الشفرة السرية الخاصة ، التى توحى بأنه رجل مخابرات ، فى مهمة خاصة ؛ لذا فلم يتم التعامل معها ، من قبل وحدات الدفاع الجوى ، أو تخرج طائرة مقاتلة لاعتراضها ، حتى عبرت الحدود الفنلندية السوفيتية ، مع غروب الشمس .. وعبر العملاء السوفيت فى (هلسنكى) ، وردت معلومة تشير إلى مشاهدة (يورى بروكوفيتش) فى العاصمة الفنلندية لساعة أو يزيد ، قبل أن يستأجر سيارة رياضية صغيرة ، ويختفى بعدها تمامًا .. وفى منطقة شبه مهجورة ، تم العثور على الطائرة الصغيرة ، وخزانها فارغ تمامًا من الوقود ، على نحو يوحى بصعوبة الرحلة ، وبمهارة القائد ، الذى هبط بها على أرض نصف ممهّدة ، كما لو كانت طائرة شراعية .. أما (يورى) ، فقد ضاع أثره عند هذه النقطة ، وكأنما اختفى ، أو ابتلعته الأرض ..

المشكلة أنه لم يكتف بالهروب ، لقد أقدم على عمل رهيب للغاية .. واستغلّ براعته ، ومهارته ، وحساسية منصبه الخطير ، ليحمل معه أسطوانة كمبيوتر مدمجة ، تحوى أخطر أسرار الجاسوسية السوفيتية ، فى (أوروبا) والأمريكيتين على الإطلاق .. والأكثر خطورة أنه قد فعل هذا على نحو سافر ، متعمدًا ترك أثره خلفه ، ليُدرك الكل خطورة ما يحمله ، فى هروبه هذا .... باختصار ، كان رجل المخابرات السوفيتى يترك رسالة لرؤسائه ، يُعلمهم بوساطتها أنه قد انشقّ عنهم ، ومن الخطر تعقُّبه ، أو محاولة استرجاعه ، أو حتى الانتقام منه .. ولكن الشىء الوحيد ، الذى فات على اللاعب المخضرم أن يُدركه ، هو أنه فى عالم المخابرات ، لاوجود لكلمة مستحيل .. ولا مجال للتراجع أو الاستسلام .. أبدًا ..

لذا ، فقد أصدر مدير المخابرات السوفيتية قرارًا بعقد اجتماع عاجل وسرى للغاية ، مع نوابه ومساعديه ، لبحث الموقف ، الذى اندرج فورًا تحت بند (سرى وعاجل للغاية) .. وفى بداية الاجتماع ، وبكلمات موجزة ، تحوى كل التفاصيل الضرورية ، شرح المدير الأمر كله ، قبل أن يؤكد حتمية العثور على (بروكوفيتش) ، واستعادة الأسرار منه ، قبل أن يظفر بها آخرون .. ولأن القاعدة تقول : إنه لايفلّ الحديد إلا الحديد ، فقد تم إسناد مهمة البحث عن الذئب الهارب إلى ذئب آخر .. (فلاديمير كلاشينكوف) ..

فبين كل رجال المخابرات السوفيتية ، كان (فلاديمير كلاشينكوف) هذا يحتل مكانة خاصة إلى حد كبير ، إذ أنه شاب ، فى السابعة والثلاثين من عمره ، ينتمى إلى عائلة ذات أصول عسكرية عريقة ، وكل من يعرفه يُدرك إنه حاد الذكاء ، متقد الذهن ، صموت ، بارع إلى حد مدهش ، فى كل ما يتعلق بأسرار وأعمال المخابرات .. ثم أنه كان تلميذًا نجيبًا طوال عمره ، للهارب (بروكوفيتش) ، ويُدرك جيِّدًا أسلوب تفكيره وتخطيطه ، ووسائله فى التعامل مع الأمور ..

ولم يكن الأمر إذن بحاجة إلى الكثير من التفاصيل أو المناقشات ، لذا فقد صدرت الأوامر الرسمية ، بعد نصف الساعة فقط ، بأن يتولى (كلاشينكوف) عملية الجاسوس الهارب شخصيًا ، مع منحه كل الصلاحيات والسلطات ، للتحرّك فى أى مكان فى العالم ، والاستعانة بأى عميل سوفيتى ، أو حتى بمسئولى السفارات السوفيتية ، الذين أرسلت إليهم أوامر مشدّدة ، خالية من التفاصيل ، لتقديم كافة خدماتهم ، دون أدنى مناقشة إلى (أيجور) ، وهو الاسم الكودى السرى ، الذى سيتحرّك به (كلاشينكوف) طوال الوقت ..

وكان هذا إيذانًا ببدء واحدة من أخطر العمليات ، فى الأيام الأخيرة لجهاز المخابرات السوفيتى الرهيب ..

ولقد تلقى (فلاديمير كلاشينكوف) الأمر في ثقة وهدوء ، وراجع التفاصيل كلها مع رؤسائه مرتين ، قبل أن يُغلق على نفسه باب مكتبه ، ويجلس وحيدًا ، ليدرس الأمر كله مع الشخص الوحيد ، الذى يوليه ثقته ، فى الكون كله .. مع نفسه ..

ولقد كانت له عاداته الخاصة ، عندما يدرس قضية ما ، فهو يجلس وحيدًا فى حجرة مكتبه ، ويُطفئ كل الأنوار ، ويُغلق كل النوافذ ، ويُغمض عينيه ، ويُفكّر بعمق وتركيز شديدين ..

وفى هذه العملية ، استغرقت عزلته هذه ساعتين كاملتين ، وبضع دقائق إضافية ، قبل أن يُغادر حجرة مكتبه فى نشاط عجيب ، ويطلب من مساعده فى حزم صارم ، ونبرات قاسية اشتهر بها تذكرة بالدرجة الأولى إلى (لندن) ، وأخرى من (لندن) إلى (نيويورك) ، بعد يوم واحد فقط .

وقبل أن ينتصف النهار ، كان داخل طائرة الخطوط البريطانية ، التى تتجه إلى (لندن) ..

وفى نفس اللحظة ، التى حلّقت فيها الطائرة من مطار (موسكو) ، كان رجل المخابرات الأمريكى (جورج توماس) يوقف سيارته ، أمام منزله الصغير فى أطراف (واشنطن) ، ويتثاءب فى إرهاق وتهالك ، وهو يُغادرها ، ويدس مفتاح منزله فى ثقب الباب ، ثم يدخل المنزل ، وهو يُطلق من أعمق أعماق صدره زفرة مرهقة ، و...

وفجأة ، توترت كل خلية فى جسده ، ووثبت يده بحركة حادة نحو مسدسه ، المعلّق تحت إبطه ، وانعقد حاجباه فى شدة ، وجسده كله ينتفض فى عنف ، ويرتدّ إلى الخلف ، كمن أصابته لطمة عنيفة .. فهناك ، فى ركن المنزل ، وعلى الضوء الخافت ، المتسلل من النافذة ، كان يجلس شخص ما ، يُصوّب إليه فوهة مسدس كبير ... ويا لها من مفاجأة ..

لقد انتفض جسده فى عنف ، وحاول أن يلتقط مسدسه فى سرعة ، لولا أن ارتفع صوت صارم قاس ، من وسط الظلام ، يقول بالأمريكية ، وبلكنة شرقية واضحة :

ـ حذار أن تفعلها يا رجل ، فرصاصتى ستسبق يدك حتمًا .

حدّق (جورج) لحظة فى وجه (بروكوفيتش) ، قبل أن يهتف :

ـ رباه ! إننى أعرفك .. (بروكوفيتش) .. (يورى إيفان بروكوفيتش) .. نائب مدير المخابرات السوفيتية ، ورئيس وحدة العمليات الانتحارية .

غمغم (بروكوفيتش) :

ـ بالضبط .. وأنت (جورج بى توماس) .. نائب رئيس وحدة الجاسوسية المضادة ، فى المخابرات المركزية الأمريكية ..

شدّ (جورج) قامته، واستعاد ثقته وتماسكه، وهو يقول:

ـ عظيم .. هذا يكفى لتعارفنا .. والآن أعتقد أنه من المناسب أن تُجيب ذلك السؤال، الذى يلتهب به ذهنى، منذ وقع بصرى عليك .. ما الذى تفعله هنا بالضبط ؟!

مطّ (بروكوفيتش) شفتيه، وهو يقول فى صرامة:

ـ أنا هنا كصديق .

قال (جورج) فى عصبية:

ـ صديق ؟! وهل يتسلّل الصديق تحت جنح الظلام هكذا، إلى منزل صديقه، وبمسدس ضخم ؟!

خفض (بروكوفيتش) فوهة مسدسه، مجيبًا:

ـ أنت تعلم أن عالمنا مُعقَّد متشابك، والقواعد فيه تختلف تمامًا عن قواعد العالم الخارجى .

مطّ (جورج) شفتيه بدوره، وجلس على أقرب مقعد إليه، وهو يسأله مكررًا، فى صرامة شديدة:

ـ لماذا أتيت إلى هنا يا (بروكوفيتش) ؟!

جذب (يورى) مقعدًا، وجلس أمامه، مجيبًا:

ـ جئت أعرض عليكم صفقة مباشرة .

ردَّد (جورج) فى حذر:

ـ صفقة ؟! أى نوع من الصفقات ؟! ما الذى تعرض بيعه لنا بالضبط ؟!

صمت (يورى) طويلاً، وهو يتطلّع إليه مباشرة، بعينين تكتمان انفعالاً جارفًا، قبل أن يُجيب فى بطء وعمق شديدين:

ـ أنا .

وكانت مفاجأة .. مذهلة ..

★ ★ ★

لم يكد (فلاديمير كلاشينكوف) يُغادر مطار (هيثرو)، حتى وجد فى انتظاره سيارة السفارة السوفيتية، وبداخلها الملحق العسكرى، الذى تقدَّم نحوه مباشرة، على نحو يؤكِّد معرفته السابقة به، وصافحه فى حرارة، ثم يقوده إلى سيارة السفارة ويجلس إلى جواره، ويشير إلى السائق بالانطلاق، وهو يقول:

ـ رجالنا انتشروا فى كل مكان فى (انجلترا) كلها، ومعهم صورة الر .. أعنى الهارب (بروكوفيتش)، ولكن أحدًا لم يتعرَّفه قط، وهذا يؤكِّد أنه لم يصل إلى هنا أبدًا، ولقد تأكَّدنا تمامًا، على نحو لا يتطرّق إليه الشك .

قال (كلاشينكوف) فى صرامة شديدة ، على نحو يوحى بعدم رغبته فى مناقشة الأمر :

ـ لى أساليبى الخاصة .

وكان هذا آخر ما تبادله من حديث ، مع الملحق العسكرى السوفيتى ، حتى بلغا السفارة ، واعتزل كعادته فى حجرة مكتب خاصة ، أغلقها على نفسه فى إحكام ، مع كل تقارير البحث والمراقبة ، وراح يراجع كل سطر بنفسه ، فى صمت تام .. بل كل جملة ، وكلمة .. وحرف .. راجع كل شىء ثلاث مرات ، بمنتهى الدقة ، قبل أن ينهض ليُطفئ الأنوار ، ثم يجلس وسط الظلام مغلقًا عينيه ؛ ليعتصر خلايا مخه حتى أقصى درجة ، فى محاولة لبحث الأمر بأسلوبه الخاص ..

كانت لديه قدرة مدهشة على أن يخرج من كيانه ، ويتقمَّص شخصية خصمه ، بعد أن يدرس أسلوبه وعملياته السابقة .. وفى هذه المرة كان الخصم أستاذه ، الذى علَّمه ودرَّبه ، ومنحه خلاصة عمره ، وخبرته ، وتجاربه ، على نحو أصبح عقله معه مفتوحًا ، بحيث يمكنه فهم أساليبه وخطواته ، كما لم يفهم مخلوقًا آخر من قبل .. ومن المؤسف أن تكون أوَّل مرة يستغلَّ فيها كل هذا ، هى مطاردته لأستاذه ، وسعيه خلفه ..

ولكن (كلاشينكوف) كان يتميَّز بأمر آخر ، يختلف فيه عن سائر البشر .. كان رجلاً بلا قلب .. على الإطلاق .. لذا فقد أسقط تمامًا علاقته بأستاذه ، ومحاها من ذاكرته ، باستثناء كل ما يمكن أن يفيده فى الإيقاع به ..

وفى جلسته وسط الظلام ، راح يراجع موقفه كله ، ويُفكِّر بعقل أستاذه الهارب .. ماذا سيفعل ، لو أنه فى موضعه ؟!

هارب من الكيان السوفيتى ، الذى يوشك على انهيار تام ، ويحمل مجموعة من أخطر الوثائق والأسرار ، التى تهدِّد أمن الآلاف ، فى شتى أنحاء العالم .. من الطبيعى ، والحال هكذا ، أن يسعى إلى أحد أهم عدوين للنظام الشيوعى ، فى العالم كله .. (بريطانيا) أو (أمريكا) .. وفى تقديره هو ، كانت (أمريكا) هى الخيار الأمثل ، لاتساع رقعتها ، وكثرة المهاجرين السوفيت فيها ، على نحو يتيح للهارب الذوبان وسطها ، والضياع فى زحامها ، واتساعها ، مع تضاؤل فرص العثور عليه إلى الحد الأدنى .. وعلى الرغم من هذا ، كان على (كلاشينكوف) أن يدرس الاحتمال الأوَّل أيضًا ، قبل أن تقفز إلى الاحتمال الثانى .. ولكن كل التقارير تؤكِّد أن (يورى) لم يصل إلى (إنجلترا) قط ، بعد اختفائه فى (هلسنكى) ،

وهذا يُحدِّد ساحة واحدة للمعركة .. (أمريكا) .. وبعد حسم هذه النقطة ، لم يضع (كلاشينكوف) لحظة واحدة ، وإنما طلب إلغاء تذكرة سفره إلى (نيويورك) ، وحجز تذكرة أخرى ، فى أوّل طائرة تغادر إلى (واشنطن) ؛ ليوفّر بضع ساعات ، استعدادًا للجولة التالية ..

الجولة الأمريكية .

* * *

من المؤكّد أن عرض (بروكوفيتش) قد أدهش المخابرات الأمريكية وأربكها بحق ، فعلى الرغم من مقابلته الشخصية مع (جورج توماس) ، لم يكن أحد يعلم أين يُقيم (بروكوفيتش) هذا ، أو كيف يمكن الاتصال به ، ففور خروجه من منزل (جورج) أجرى هذا الأخير اتصالاته برجاله ، وطلب منهم تعقُّبه ، والقيام بكل التحريات الممكنة حوله ، وحول سبيل وصوله إليه ، ولقد تحرّك الكل فورًا ، ولكنهم لم يتوصلوا إلى أى شىء .. إلا أن البحث ما زال مستمرًا ..

ثم إنه وعلى الرغم من الحرب الباردة ، التى استمرت سنوات طوال ، ومن عشرات الصراعات ، مع الجانب السوفيتى ، إلا أنها أوّل مرة يحدث فيها هذا ، ويعرض رجل

مخابرات سوفيتى نفسه للبيع ، مع هدية أكّد أنه لن يمكنهم الحصول عليها بدونه أبدًا ...

ولم يكن الأمر يحتاج إلى كثير من الذكاء ، ليُدرك المرء أن هديته عبارة عن كومة من الأسرار السوفيتية ، بالغة السرية والخطورة ، والتى أمكنه الحصول عليها ، بحكم منصبه ..

ولكن ما لم يحدث أبدًا فى عالم المخابرات ، هو أن ينضمّ رجل مخابرات محترف إلى جهاز مخابرات مضاد ، حتى ولو قدّم قرابين الدنيا كلها .

ولقد قال (جورج) لرئيسه ، مفسرًا هذا :

ـ الرجل يشعر بالضياع ، بعد أن أدرك أن مخابراته تسعى للاستغناء عنه ، ويقول إن المخابرات هى المهنة الوحيدة التى يجيدها ، فى حياته كلها ، وأنه مستعد لتقديم كل خبراته وخدماته لنا ، مقابل مواصلة المهنة ، أيًا كان جهاز المخابرات الذى سيعمل لحسابه .. ثم إن (يورى بروكوفيتش) ليس غبيًا أو ساذجًا .. لا ريب فى أنه قد أعدّ الأمر بحنكة ، بحيث لا يخسر لعبته هذه .

لم يكن أمامهم إذن سوى الانتظار حتى يخطو السوفيتى الخطوة التالية ، والاستعداد للإطباق عليه فور ظهوره .

وبأى ثمن ...

* * *

معلومات جديدة مثيرة ، توصل إليها عملاء المخابرات السوفيتية فى (أمريكا) ، بشأن الجاسوس الهارب (يورى كلاشينكوف) .. لقد تعرّف أحد سائقى سيارات الأجرة الصفراء صورته ، وقرّر أنه قد نقله من مطار (واشنطن) ، إلى منطقة سكنية راقية ، تعرف باسم (فيينا) .. وبسرعة ، انتقل العملاء السوفيت إلى (فيينا) ، وراحوا ينبشون عن ضابطهم المنشق ، فى حذر ونشاط .. وكم كانت دهشتهم ، عندما عثروا على المسكن الذى استأجره هناك .. صاحب المسكن تعرّفه على الفور ، وأكّد أنه قد استأجر أحد المساكن ذات الطابقين ، تحت اسم (ويليام كانديس) ، وبجواز سفر (سويدى) .. ولأن (بروكوفيتش) لم يكن فى ذلك المنزل ، عندما بلغه العملاء السوفيت ، فقد اكتفوا بمحاصرته خفية ، وإبلاغ رئيسهم (فلاديمير كلاشينكوف) ، الذى يعرفونه باسم (أيجور) .. وكعادته لم يضع (كلاشينكوف) لحظة واحدة ، وحملته سيارة خاصة ، من مبنى السفارة إلى حى (فيينا) مباشرة .. وداخل منزل مجاور ، استأجره العملاء السوفيت ، وضع (كلاشينكوف) منظاره المقرّب على عينيه ، وراح يفحص منزل (بروكوفيتش) طويلاً ، قبل أن يغمغم :

- إنه ليس هنا .

ولسبب ما ، خرجت الكلمة ، من بين شفتيه متخاذلة ، متردّدة ، وكأنما تعبّر عن شك ما ، مازال يعربد فى أعماقه ..

ولكنه ، ولأوّل مرة ، راح يضغط على عقله ، ليقنعه بحتمية الانتظار والحصار ..

الشىء الذى لم يدركه (كلاشينكوف) ، وهو ينتظر فى المنزل المجاور ، أن الأمريكيين أيضًا قاموا بعملية بحث مماثلة ، قادتهم بالطبع إلى الهدف نفسه ، وأنه فى نفس اللحظة ، التى نطق فيها كلمته الأخيرة ، كان (جورج توماس) ، رجل المخابرات الأمريكى يوقف سيارته ، على مسافة أمتار قليلة ، من المدخل الخلفى لذلك المنزل فى (فيينا) ، ويراقبه مع رجاله ، و...

وفجأة ارتفع رنين الهاتف الخاص فى السيارة ، فالتقطته أصابع (جورج) فى حركة سريعة ، ورفعه إلى أذنه ، قائلاً ، بلهجة لا تخلو من التوتر :

- من المتحدّث ؟!

تجمّدت أصابعه على سمّاعة الهاتف ، وانعقد حاجباه فى شدة ، وسرت فى جسده انتفاضة قوية ، عندما أتاه صوت

(بروكوفيتش) ، عبر أسلاك الهاتف ، وهو يقول فى هدوء صارم ، وبلهجة تحمل نبرات آمرة مستفزة :

ـ هل أنت مستعد للقاء التفاوض ؟!

ازدرد (جورج) لعابه فى صعوبة ، وهو يسأل :

ـ متى وأين ؟!

أجابه (كلاشينكوف) بنفس اللهجة :

ـ الثامنة مساءً متحف الفضاء والطيران . أمام نموذج (أبوللو ـ ١١) .. احضر وحدك ، وإلا فستلغى الصفقة كلها .

قالها ، وأنهى الاتصال فورًا ، دون أن يمنح (جورج) فرصة إلقاء سؤال واحد ، فاحتقن وجه هذا الأخير ، ثم عاد يلتقط سمَّاعة هاتف السيارة ، ويضغط أزراره فى سرعة ، ولم يكد يسمع صوت مُحدِّثه ، حتى قال له فى لهفة :

ـ أخبرنى بمصدر المحادثة ، التى وصلتنى على التو .

اطمأن إلى أن المحادثة قد أجريت من داخل (واشنطن) ، من هاتف عمومى ، بالقرب من المطار ، وليس من أية ولاية أخرى ، ثم اتخذ قراره بمواصلة الحصار ، والذهاب للقائه ، فى الموعد الذى حدَّده ، مؤكدًا أنها ستكون الجولة الأخيرة ..

فى الوقت نفسه ، تلقَّى (كلاشينكوف) اتصالاً خاصًا ، فى ذلك المنزل ، المجاور لمنزل (بروكوفيتش) ، وسمع صوت واحد من أهم وأخطر عملاء المخابرات السوفيتية فى (أمريكا) ، وهو يقول فى توتر :

ـ سيِّد (أيجور) .. لقد رصدت منذ لحظات محادثة هاتفية ، بين نائب رئيس وحدة الجاسوسية المضادة (جورج توماس) ، والمنشق (يورى بروكوفيتش) ، من هاتف عمومى ، بالقرب من المطار الشرقى .. لقد حدَّد موعدًا لمقابلته ، فى منطقة (سماثونيان) ، حيث تجتمع المتاحف العامة .. وبالتحديد أمام نموذج (أبوللو ـ ١١) ، فى متحف الفضاء والطيران ، فى تمام الثامنة مساءً .

وعلى الفور ، وعلى الرغم من أن عقارب الساعة لم تتجاوز السادسة بعد ، انطلق (كلاشينكوف) بسيارة أمريكية ، تحمل لوحات ولاية (ميتشجن) ، إلى منطقة المتاحف فى (واشنطن) (سماثونيان) ، وكيانه كله يرتجف انفعالاً ، ويشتعل حماسًا .. لقد حسمت اللعبة أمرها بأسرع مما تصوَّر بكثير ، وتحدَّد موعد المواجهة الأخيرة ، التى سيكون عليه أن يبزّ فيها أستاذه ، ويتفوَّق عليه ، ويدحره .. وعلى مسافة كبيرة من متحف

الفضاء والطيران ، جلس ضابط المخابرات السوفيتى يراقب المكان ، بمنظر مقرّب ، فى حين انتشر رجاله ، الذين يجهلهم (بروكوفيتش) ، حول المكان ، بعيون كالصقور ، وأصابع متحفزة لضغط أزندة المسدسات ..

وفى السابعة والنصف ، ظهر (جورج توماس) وحيدًا منفردًا ، وإن لم تراود (كلاشينكوف) ذرة واحدة من الشكّ ، فى أن جيشًا من رجال المخابرات المركزية الأمريكية حوله ، متخفين فى عشرات الأزياء والمهن .. وببطء مستفز لكل الأطراف ، تحركت عقارب الساعة .. ومرّت الثوانى بطيئة متثاقلة ، على نحو مستفز ، بالنسبة لمن هم خارج متحف الفضاء والطيران الأمريكى ، فى (واشنطن) ، فى انتظار وصول (بروكوفيتش) ، الذى أعلن أنه سيلتقى رجل المخابرات الأمريكى (جورج توماس) ، عند نموذج (أبوللو ـ ١١) .. ولعل أكثر من أصابهم التوتر هو (جورج توماس) نفسه ، الذى وقف عند النموذج ، يتلّفت حوله فى قلق ، ويلقى نظرة على ساعته كل دقيقة وأخرى ، وهو يتساءل : لماذا تأخر (بروكوفيتش) عن موعده ؟! لماذا ؟! لماذا ؟!

السؤال نفسه تردد بعنف ، فى أعماق (فلاديمير كلاشينكوف) ، الذى عهد أستاذه دقيقًا ملتزمًا ..

ولكن الأمر كله لم يكن تقليديًا بالتأكيد ؛ فمن المؤكَّد أن (بروكوفيتش) يُدرك جيدًا أن رجل المخابرات الأمريكى لن يحضر وحده ، حتى ولو أقسم على هذا ألف مرة .. هناك حتمًا فريق كامل ، من رجال المخابرات الأمريكيين ، يحيط بالمنطقة كلها ، إحاطة السوار بالمعصم ، فى انتظار ظهوره .. وكذلك فريق عملاء المخابرات السوفيتية ..

ورجل مُحنَّك ، مثل (يورى بروكوفيتش) ، لن يأتى مباشرة كغرّ ساذج ، وإنما سيراقب المكان ، ويحوم حوله مرة .. ومرة .. ومرات ... ولكن الانتظار طال .. وطال .. وطال .. عقارب الساعة تجاوزت الساعة الثامنة والنصف ، وبدأت رحلتها نحو التاسعة ، والتوتر راح يُحيط بالكل ، ويشملهم حتى النخاع ، وبالذات (جورج) ، فقد تضاعف توتره ألف مرة ، وهو يقف عند نموذج (أبوللو ـ ١١) ، وسط المتحف الخالى ، الذى أغلقت أبوابه رسميًا منذ ساعات ، وبدأ يفقد الثقة فى أن (بروكوفيتش) سيظهر من الأساس ، ثم لم يلبث أن ضرب قبضته اليمنى فى راحته اليسرى ، صائحًا فى غضب ساخط :

ـ لقد خدعنا .

فى نفس اللحظة التى نطق فيها عبارته ، انعقد حاجبا (كلاشينكوف) بغتة ، وكأنما سمع العبارة ، وانطلقت أفكاره

كالنيران ، لتُشعل مخه كله بلا هوادة .. وبلا رحمة .. وفى ظلام السيارة الساكنة ، وعلى الرغم من عينيه المفتوحتين ، انطلق عقله يُعيد دراسة الموقف كله ، لحظة بلحظة ، وخطوة بخطوة .. وازداد انعقاد حاجبيه أكثر .. وأكثر .. وأكثر .. و...

وفجأة ، انتفض جسده كله فى عنف ، وكاد يثب من مقعده ، وهو يصرخ فى انفعال جارف عنيف :

ـ المطار !!

التفت إليه الكل داخل السيارة فى دهشة قلقة ، فانغرست أصابعه فى كتف أحدهم ، حتى كادت تخترقه ، وهو يهتف :

ـ المطار .. انطلق بنا إلى المطار مباشرة .

قال سائق السيارة فى ارتباك :

ـ وماذا عن (بروكوفيتش) ؟! ألن تنتظره ؟!

هتف به فى حدة :

ـ ألم تفهم بعد أيها الغبى ؟! إنه لن يأتى أبدًا .

نطقها بكل ما يعتمل فى نفسه من غضب هادر بلا حدود ..

لقد خدعه أستاذه ببراعة منقطعة النظير .. بل خدع الكل .. وبلا استثناء ..

★ ★ ★

لم تكد الشمس تشرق ، من خلف برج (إيفل) ، فى قلب (باريس) ، حتى برزت تلك السيارة الفرنسية الصغيرة ، من شارع جانبى ضيق ، وانطلقت لبضعة أمتار ، قبل أن تتوقَّف عند آخر مدى مسموح به ، ويهبط منها رجل رصين وقور ، أشيب الفودين ، يرتدى حلة أنيقة للغاية ، ويحمل مظلة غالية الثمن ، ثم يتلَّفت حوله ، ويتجه مباشرة نحو أحد الأكشاك السياحية المنتشرة فى المنطقة .. ولثوان ، وقف وحده ، إلى جوار الكشك ، قبل أن يبرز من خلفه فجأة رجل يرتدى معطفًا سميكًا ، من طراز ردىء الصنع ، تبادل معه فى اقتضاب كلمة السر المتفق عليها ، فتنحنح ، وهو يمدّ يده للقادم ، قائلاً :

ـ مرحبًا يا سيِّد (بروكوفيتش) .. أنا (إدوارد هاينز) ، من السفارة البريطانية .

ثم ناوله إيصالاً من أحد البنوك السويسرية ، بمبلغ خمسة ملايين جنيه إسترلينى ، وهو يستطرد :

ـ لقد تم إيداع المبلغ بالاسم الذى طلبته ، وهذا الإيصال دليل على ذلك .. والآن أين الأسطوانة ؟!

ابتسم (بروكوفيتش) ، وهو يقول :

ـ ألا تخشون أن يكون كل هذا مجرّد خدعة ؟!

هزّ البريطانى رأسه فى هدوء ، قائلاً :

ـ مطلقًا يا سيّد (بروكوفيتش) .. نحن أيضًا لنا عيوننا وسط جهاز مخابراتكم ، ولقد أبلغونا بكل ما فعلته ، ولكنهم لم يتصوّروا أنك ستخدع الأمريكيين والسوفيت ، وتتركهم يبحثون عنك فى (أمريكا) ، فى حين كنت تستقل الطائرة لتلتقى بنا هنا ، فى (باريس) ..

بدت ابتسامة (بروكوفيتش) غامضة ، وهو يقول :

ـ اللعبة أكبر مما يمكن أن يتصوّر أحد .

قال البريطانى بنفس الهدوء البارد :

ـ نعم .. ولكننا ربحنا كالمعتاد ، وتركنا الكبيرين يواجهان بعضهما عبثًا .

اكتست ابتسامة (بروكوفيتش) بغموض أكثر ، وهو يقول :

ـ بالطبع .

أخرج البريطانى جهاز الكمبيوتر النقّال من حقيبته ، ودسّ فيه الأسطوانة ، وانتظر حتى بدأت عملها ، وألقى نظرة سريعة على محتوياتها ، قبل أن يُغمغم :

ـ عظيم .. الخبراء سيراجعون المعلومات ، و...

انتبه فجأة إلى أنه يقف وحيدًا ، فتلفّت حوله فى دهشة ، ولكن (بروكوفيتش) كان قد اختفى .. تمامًا .. بل لقد كانت آخر مرة يراه فيها رجل مخابرات ، من أية دولة كانت .. فقد تلاشى تمامًا ، وكأنما لم يكن له وجود قط ، تاركًا خلفه ثلاثة من كبريات أجهزة المخابرات العالمية ، فى غضب وثورة بلا حدود ..

وبوسيلة ما ، تم سحب الملايين الاسترلينية الخمسة ، بعد نصف الساعة فحسب ، من لقائه مع البريطانى ، من ذلك الحساب فى البنك السويسرى ، ولا أحد يعلم كيف ، ولا أين ذهب بعدها !

الأمريكيون اشتعلوا غضبًا ، لأنه استغلّهم لخداع السوفيت ، وجذبهم إلى مضمار واسع ، فى الوقت الذى كان يعقد فيه صفقته مع البريطانيين .. والسوفيت ساءهم أن ينتهى عهد المخابرات السوفيتية (KGB) ، بخدعة كبيرة كهذه ، فشلوا فى السيطرة عليها ، أو كشف أمرها .. أما البريطانيون ، فقد كانوا أكثر الجميع غضبًا وثورة بالتأكيد ، هذا لأن (يورى بروكوفيتش) كان ذكيًا وعبقريًا فى مضماره ،

ولكنه لم يكن أبدًا خائنًا ، لذا فكل ما حصلوا عليه منه هو معلومات عادية ، يعرفونها بالفعل من قبل ..

وكانت هذه رسالة للجميع ، ليُدركوا أن الجاسوس العبقرى ، لم ولن يتورّط فى لعبة الخيانة .. إلا إذا دعت الحاجة إلى هذا .. والحاجة ستدعو هنا ، لو أصرّوا على مواصلة البحث عنه .. عندئذ .. وعندئذ فقط ، سيسلّم أسرار بلاده لمن يدفع ثمنًا أكبر ..

ولأن الرسالة واضحة ، فقد أغلقت المخابرات السوفيتية الملف ، وتجاهلت الأمر وكأنما لم يكن ، فى نفس الوقت الذى نبشت فيه المخابرات الأمريكية والبريطانية الأرض ، بحثًا عن ذلك المنشق ، الذى وجّه لها أكبر صفعة فى حياتها ، ولكن البحث كله ، فى كل أنحاء الأرض ، لم يُسفر عن أى شىء ، مما أكّد أن (يورى إيفان بروكوفيتش) يستحق بالفعل تلك السمة ، التى اشتهر بها طيلة عمره ، فى صفوف المخابرات السوفيتية ..

أنه أستاذ .. وبحق .

* * *

موسوعة الجاسوسية :

المخابرات النفسية ..

معلومات من المفترض الحصول عليها بوسائل خارقة للعادة من خلال الإدراك فائق الحس (ESP) ، أو استخدام القوى النفسية ، ولقد سعت وكالة المخابرات الدفاعية DIA للحصول على هذا النوع من الاستخبار طوال عقد كامل ، وأنفقت ما يقدر بـ ٢٠ مليون دولار على مشروع ستارجيت ، الذى بدأ فى الثمانينيات واستمر حتى عام ١٩٩٥م ، عندما أنهى المسئولون البرنامج ، معترفين باستخدامهم لوسطاء روحانيين (يعرفون بـ « المشاهدين عن بُعد ») ، استخدموا بوساطة وكالات مخابرات أخرى بالإضافة إلى الـ DIA .

كان من الواضح أن مجازفة البنتاجون بالدخول فى ملف « الأمور الخارقة للعادة » ، هى اقتداء بمحاولات السوفيت فى جمع مثل هذه الاستخبارات النفسية ، والتى فضحت على نطاق واسع بنشر كتاب « الاكتشافات النفسية وراء الستار الحديدى » فى الولايات المتحدة عام ١٩٧٠م .

وذكر مؤلفىَ الكتاب : « شيليا أوستراند » و« لين شرودر » أنهما قد أجروا مقابلات مع عديد من العلماء السوفيت ، الذين

عملوا لعدة سنوات فى مجال الباراسيكولوجى والإدراك فائق الحس ESP .

تضمن الكتاب العديد من التجارب السوفيتية فى هذا الصدد ، منها واحدة أثارت اهتمام الباحثين فى البحرية الأمريكية فيما بعد .

وضع السوفيت أرانب رضيعة فى غواصة فى عمق البحر ، وأدخلوا أقطابًا كهربية فى دماغ الأرنبة الأم ، التى احتفظوا بها فى معمل على الشاطئ ، وفى اللحظة التى قتل فيها الشخص المسئول عن التجربة أرنبًا وليدًا ، حدث رد فعل فى عقل أم الأرنب ، وأقر عالم سوفيتى :

« كان هناك اتصال ، لقد سجلت أجهزتنا هذه اللحظات من الإدراك فائق الحس (ESP) بوضوح » .

وعلى ما يبدو ، فإن السوفيت قد بدءوا عملهم هذا بعد فترة قليلة من إعلان الفرنسيين عن أن البحرية الأمريكية تختبر «التليباثى» ، أو التخاطر من السفينة ـ إلى ـ الشاطئ ، مستخدمين «ناوتيلس» أول غواصة نووية فى التاريخ . ونقل « أوستراند » و« شرودر » عن د . « ليونيد ل . فازيليف » ـ عالم النفس السوفيتى والكاتب ذى الإنتاج الغزير فى مجال الباراسيكولوج ـ قوله :

« لقد أجرينا حتى الآن أبحاثًا شاملة ، وغير مسجلة على الإطلاق على الـ ESP فى عهد ستالين » !

اليوم تقوم البحرية الأمريكية باختبار (التليباثى) على غواصاتهم الذرية .... يجب علينا أن نخوض داخل هذا الحقل الحيوى لاستكشافه .

اهتم المسئولون بالبنتاجون بـ « الاكتشافات النفسية وراء الستار الحديدى » بعد نشره بفترة وجيزة ، إلا أنه ليس معروفًا ما إذا كان هذا الكتاب هو الذى أدى إلى ظهور برامج الـ DIA من عدمه . كشفت « الواشنطن بوست » فى نوفمبر ١٩٩٥م عن حقيقة تعيين الوسطاء « الروحانيين » الذين عملوا فى (ستارجيت) بموقع للـ ان اس ايه فى حصن مياد .

كان مشروع (ستارجيت) قد انتهى بهدوء فى منتصف عام ١٩٩٥ م تقريبًا ، بعد أن تولت الـ سى آى ايه أمره بوقت قصير ، وقررت عدم جدوى إنفاق أى أموال على هذا المشروع بناءً على تقارير سلبية من مستشارين خارجين .

والعكس تمامًا ، مازال العاملين بالـ DIA مؤمنين بأن ١٩ حالة على الأقل ، من حالات (المشاهدين عن بُعد)

أثمرت نتائج ناجحة .. ففى إحدى الحالات ، فى سبتمبر ١٩٧٩ م ، استفسر مجلس الأمن القومى عن غواصة سوفيتية قيد الإنشاء . تنبأ (المشاهدون عن بُعد) أن غواصة سوفيتية مسلحة بـ ١٨ إلى ٢٠ أنبوبة لإطلاق الصواريخ و« بمساحة خلفية مسطحة وضخمة » وستنطلق فى خلال ١٠٠ يوم . وبالفعل ، شوهدت غواصتين بأنابيب صواريخ (ولكن بعدد أقل من المتنبأ به) فى خلال ١٢٠ يومًا .

« جوزيف ماك مونيجل » ضابط الاحتياط الأمريكى ، وأحد « المشاهدين عن بُعد » فى (ستارجيت) ـ الذى حُول اسمه الكودى إلى (جريلفلام) ـ فى عام ١٩٧٨ م صرح بأن المعلومات التى كان يحصل عليها هو وزملاؤه من « المشاهدين عن بُعد » كانت مكملة للاستخبارات القادمة من المصادر التقليدية .

كانت الجهات المطالبة بالاستخبارات النفسية ، كما ذكر ، هى الـ سى آى ايه ، وان اس ايه ، وهيئة الأركان المشتركة ، والخدمة السرية ، ومكتب الجمارك ، وخفر السواحل .

★ ★ ★



١ـ هـــروب ..

على الرغم مـن الهزيمـة الواضحـة ، التـى منـى بهـا (أدولـف هتلر) ، زعيم حزب العمال الألمـانى الاشتراكى الوطنى (النازى) ، فى انتخابات رياسة الجمهوريـة ، فى عام ١٩٣٢م ، إلا أن حزبـه احتل أكـبر عـدد مـن مقـاعد الرايشستاج ، مما أجبر الرئيس المنتخب (هندنبورج) على تعيينه رئيسًا للوزراء ، فى يناير ١٩٣٢م ..

ومنذ اللحظة الأولى ، التى تبوأ فيها (هتلر) عرش السلطة ، استعان برفيقيه (جوبلز) و (هملر) ، الأول كبوق للدعاية ، ولترويج أفكاره ، التى ترجع كل ما حاق بـ (ألمانيا) ، من تدهور اقتصادى واجتمـاعى ، إلـى الرأسمالية اليهوديـة ، والشيوعية ، ومعاهدة (فرساى) ، وتبشير الشعب الألمـانى بعهد جديد ، تصبح فيـه (ألمانيـا) دولـة مرهوبـة الجـانب ، قوية الكلمة ، تنعم ببحبوحة من العيش ..

أما الثانى ، فقد كانت مهمته ، التى بدأت سرية ، وتحت رعاية عدد من كبار رجال الصناعة ، هى الاعتداء على خصوم (هتلر) ، وإرهابهم ، بل وإزاحتهم من الحياة كلها ، لو اقتضى الأمر ..

ودون تردد ، بـدأ (هتلر) عهدًا ديكتاتوريًا صارمًا فى (ألمانيا) ، وشن حربًا عنيفة على الشـيوعيين ، الذين اتهمهم بحرق دار (الرايشستاج) ، واستغل الفرصة لوضع كـل مرافق (ألمانيا) تحت إشرافه الشخصى ، وانتزع كل السلطات لنفسـه ، وأشاع موجة رهيبـة من الرعب والإرهـاب ، وخاصـة مع المذبحة التى قام بها عام ١٩٣٤م ، ومعسـكرات الاعتقـال ، التى ألقى فيها كل خصومه ..

وعقب تلك المذبحة الدموية الرهيبة ، تم توحيد رياسـة الجمهورية مـع رياسـة الوزراء ، وامتلك (أدولـف هتلر) زمام كل السلطات فى قبضته ..

وكان هذا إيذانًا ببدء عهد جديد ..

عهد أكثر شراسة ، ووحشية ، وعنفًا ، ودموية ..

وبوسـاطة جهاز (الجستابو) الرهيب ، تم اعتقـال كـل المعارضين ، والتنكيل بهم ، بمنتهى العنف والوحشية ، وبدأ نزيف الدم ، على نحو غير مسبوق ، فى تاريخ (أوروبا) كلها ..

وكرد فعل طبيعى ، يرتبط بالطبيعـة البشـرية ، وغريـزة الدفاع عن النفس ، آثر معظم المعارضين الصمت ، وقبعوا

فى بيوتهم ساكنين مرتجفين ، وأطبقوا أفواههم تمامًا ، أو راحوا يخالفون ما يؤمنون به ، ويعلنون تأييدهم للحزب النازى ، وزعيمه الرهيب ، بل إن بعضهم قد سارع بالانضمام إلى الحزب ، وتسجيل اسمه فيه ، ولصق شارته على صدره أو ذراعه ؛ اتقاء للشر الرهيب الذى جثم على صدور الكل بلا رحمة ..

وقلائل هم من رفضوا هذا ، وأصروا على الصمود والمقاومة ، والتشبث بمبادئ الحرية والديمقراطية والانفتاح ..

ولأن المناخ لا يتسع لوجود مثل هذه الفئة ، فى دولة أبرزت أنيابها ومخالبها ، وباتت تستعد لحرب طاحنة قادمة ، لم يكن أمام المنشقين عن النظام إلا أن يعبروا الحدود ، ويلجئوا إلى الدول الحرة المجاورة ، وعلى رأسها (سويسرا) ..

ومن بين تلك الفئة المعارضة ، كان (رود ألدريتش) ..

و(ألدريتش) هذا كان صحفيًا سياسيًا ، له أعمدة شهيرة ، فى أكثر من سبع صحف يومية ، ثم جاء الرايخ

الثالث ، ليضع رقابة صارمة على الصحف ، ويمنع نشر أية انتقادات ، ويطارد وينكل بكل صحفى ، ما زال يتصور أن هناك قلمًا حرًا ، فى (ألمانيا) النازية كلها ..

ولم يحتمل (ألدريتش) هذا ، إلا أنه لم يعلن احتجاجه أو معارضته ، وإنما راح يبحث عن وسيلة لإمساك العصا من منتصفها ، بحيث لا يضطر لمنافقة الحزب النازى ، أو للفرار من وطنه كله ..

ولأنه لا يمتلك أى مصدر آخر للرزق ، ولأن علاقته بالإدارة كانت جيدة ، إلى حد كبير ، نجح (ألدريتش) فى إقناع مسئولى الجريدة بنقله ، من قسم التحقيقات السياسية ، إلى قسم المراسلين الأجانب ، بحيث لم يبدأ عام ١٩٣٥م ، حتى أصبح المراسل الأول ، لواحدة من كبريات الصحف النازية ، فى (برن) ..

وبسرعة ، جمع (ألدريتش) مقتنياته القليلة ، وحمل حقيبة واحدة ، حتى لا يثير الشبهات ، وسافر بخطاب النقل الرسمى إلى (سويسرا) ..

وهناك ، ووسط مناخ حر محايد ، استقر (ألدريتش) ، وراح يرسل إلى صحيفته بنفسه أخبار الفن والمجتمع ،

متحاشيًا تمامًا عالم السياسة ، وخاصة بعد أن رصد بنفسه عملية اغتيال دموية عنيفة ، راح ضحيتها صحفى ألمانى آخر ، استقر منذ بضعة أشهر فى (لوزان) ، وتصور أنه صار آمنًا ، فراح يهاجم الفكر النازى لثلاثة أشهر ، قبل أن يتم العثور على جثته ، وقد تم ذبحه كالنعاج ، فى حجرة نوم شقته الصغيرة ..

وعلى الرغم من أن الشرطة السويسرية قد عجزت تمامًا عن التوصل إلى الفاعل الحقيقى ، إلا أن كل ألمانى كان يدرك جيدًا أن عملية الاغتيال الوحشية هذه تحمل بصمة (الجستابو) ، وتوقيع قائده الدموى (هملر) ، الذى لا يرحم أبدًا كل من تسول له نفسه مجرد انتقاد نظم النازية وأيديولوجيتها ..

يومها ، أقسم (ألدريتش) على نفسه أن يبتعد تمامًا عن السياسة ، مهما كانت الأسباب ، وأن يستقر تمامًا فى (سويسرا) ، حيث الأمن والأمان ، والبعد عن الخطر والتنكيل ، و...

ولكن ـ فجأة ـ تغيَّرت الظروف كلها تمامًا ..

تغيرت بزيارة واحدة ..

فذات مساء ، كان (ألدريتش) يعود إلى منزله ، عندما ارتطم فجأة برجل وسيم طويل ، وقبل أن ينطق حرفًا واحدًا ، اعتذر له الرجل فى سرعة ، بلغة ألمانية سليمة ، حملت لكنة أجنبية بسيطة ..

وتجمَّد (ألدريتش) فى مكانه ..

ففى قلب (سويسرا) ، لم يكن من المألوف أبدًا أن ترتطم بشخص ما ، فيعتذر لك بلغة ألمانية !!

وبكل هلعه ، حدَّق (ألدريتش) فى وجه ذلك الوسيم ، الذى همس ، وهو يبتعد فى خطوات سريعة :

ـ اقرأها عندما تستقر فى منزلك .

ارتجف جسد (ألدريتش) ، من قمة رأسه ، وحتى أخمص قدميه مع العبارة ، التى لم يفهم منها حرفًا واحدًا ، واتسعت عيناه فى رعب مبهم ، وهو يتابع ببصره ذلك الوسيم ، الذى واصل طريقه فى هدوء ، حتى اختفى عند أول ناصية ..

وبأطراف تتماسك بالكاد ، واصل (ألدريتش) طريقه إلى منزله ، وارتجفت أصابعه الممسكة بالمفتاح ، وهو يبذل

جهدًا فائقًا ، ليدسه فى ثقب الباب ، ولم يكد يدلف إلى المنزل ، حتى ألقى جسده على أقرب مقعد إليه ، وراح يلهث على نحو عجيب ، وكأنما كان يعدو طيلة النهار ، ويبذل جهدًا ما بعده جهد ..

ولخمس دقائق كاملة ، عجز (ألدريتش) عن التقاط أنفاسه فى يسر ، ثم لم يلبث أن هدأ ، واعتدل ، وراح يفتش جيوبه فى لهفة ، حتى عثر على تلك الورقة الصغيرة المطوية ، التى دسَّها ذلك الوسيم الطويل فى جيب معطفه ، بمهارة يحسد عليها ..

وبكل توتر الدنيا ، فردَ (ألدريتش) الورقة ، وحدَّق فيها طويلاً ..

كانت ورقة صغيرة ، مطبوعة على آلة كاتبة تقليدية ، وتقول بلغة ألمانية سليمة :

ـ لو أنك مازلت تبغض النظام النازى ، وترغب فى مواجهته ، على نحو إيجابى ، اتصل بنا .. نحن نشاركك توجهاتك .

وفى نهاية العبارة ، كانت هناك تعليمات دقيقة ، عن وسيلة الاتصال ، فى حالة الموافقة ..

فكل ما كان عليه أن يفعله ، هو أن يلصق مربعًا أحمر صغيرًا ، فى الزاوية الخارجية لنافذة شقته ، المطلة على الشارع الكبير ..

وعاد جسد (ألدريتش) يرتجف ..

ففى أعماقه ، نبت فجأة خوف رهيب ، من احتمال أن يكون كل هذا مجرَّد خدعة ..

خدعة من أساليب الخداع القذرة لرجال (الجستابو) ، فى محاولة لكشف انتماءاته الفكرية الحقيقية ، وتحديد هويته ، واتخاذ الإجراءات اللازمة لتصفيته ؛ لو أنه أعلن رفضه للنظام ..

وفى أغوار عقله ، راحت الأفكار والمشاعر تتصارع فى عنف ، ومخه يدرس الموقف ، ويحلله ، ويديره على كل الوجوه ..

فمن الناحية العملية البحتة ، كان الاحتمالان متساويين تمامًا ..

من المحتمل جدًا أن تكون خدعة من (الجستابو) ، ومن المحتمل أيضًا ، وبنفس القوة ، أن تكون محاولة من نظام مضاد ، للاتصال به ..

وكان عليه أن يحسم موقفه .. وبسرعة ..

ولأنـه صحفى قديم ومحنك ، اعتـاد مواجهـة عشرات المواقف الصعبة والمعقَّدة ، فقد وضـع (ألدريتش) خطـة ، بدت له متوازنة تمامًا ؛ لمواجهة هذه المعضلة العسيرة ..

وكانت خطته تعتمد على إتمام الاتصال ، مع أولئك الذين يجهل هويتهم ، والاستماع إليهم جيدًا ، فإذا مـا راودتـه ذرة شك واحدة بشأنهم ، فسينطلق على الفور إلى السفارة الألمانية ، ويبلغ المسئولين العسكريين فيها عما حدث ، تفاديًا لأية احتمالات ، وإعلانًا لولاء زائف للنظام النازى ..

وهنـا ، وعندمـا توصل (ألدريتش) لهذا القـرار ، قـام بلصق ذلك المربع الأحمـر الصغير ، فـى الزاويـة الخارجيـة لنـافذة شـقته ، المطلـة علـى الشـارع ، وجلـس ينتظـر الاتصال ..

ولكنه تلقى بدلاً من هذا مفاجأة ..

مفاجأة غير متوقعة ..

على الإطلاق !!

★ ★ ★

٢ ـ اتصـــال ..

أيام أربعة ، قضاها (رود ألدريتش) ، الصحفى الألمانى ، المنشق عن النظام النازى ، فى انتظار إتمام ذلك الاتصـال ، الذى أبلغته به جهة ما زال يجهل هويتها ..

فى اليوم الثانى ، تصوَّر أن المربع الأحمر الصغير غير واضـح ، فأضـاء النـافذة ليل نهـار ، ومـن اليـوم الثـالث ، استخدم ضوءًا مباشرًا عليه ، أما بعد نهاية اليوم الرابع ، فقد وقر فـى نفسـه أن الأمـر كلـه لا يعدو كونـه مزحـة سخيفة ، من شخص انعدم عنده الشعور بالمسئولية ، فألقى الموضوع كلـه خلف ظهره ، ونـزع المربـع الأحمـر مـن نافذته ، وقرَّر العودة لممارسة عمله ، كمراسل لواحـدة من كبريات الصحف النازية ..

وفـى ذلك اليوم بـالتحديد ، قضى النهار كلـه ، وشـطرًا مـن المساء فى عمله ، حتى غادر المكتب فـى التاسـعة ، وعرج بعده إلى مطعم صغير ، اعتـاد تنـاول طعامـه فيـه ، فقضـى هناك ساعة أخرى ، ثم ابتـاع زجاجـة الشراب ، وعـاد إلـى منزلـه الصغير ، قبل منتصف الليل بثلث الساعة فحسب ..

وفى تلقائية ، دلف إلى مسكنه ، وأغلق البـاب خلفـه ، وأشعل الأضواء ، و ...

« تأخرت عن موعدك الليلة .. »

انبعث الصوت الهادئ بالعبارة فجأة ، بلغـة ألمانية ، ذات لكنة بريطانية واضحة ، على مسافة متر واحد منه ، فوثب (ألدريتـش) من مكانه فى رعب ، وارتجف جسده كله فى عنـف ، وهو يستدير ليحدّق فى رجل قوى البنيـة ، عريض المنكبين ، لـه رأس أصلع ، وشارب أحمر كث ، اشترك مع النمش المنتشـر فى وجهه ، ليفصح عن هويته ، وهو يبتسم فى برود ، قائلاً :

ـ هل أفزعتك ؟! معذرة .. ولكننى أنتظرك منذ التاسعة .

استمر (ألدريتش) يحدّق فيه بضع لحظات ، قبـل أن يهتـف بمنتهى العصبية :

ـ من أنت ؟! وماذا تفعل هنا ؟!

تراجع أحمر الشعر فى مقعده ، فى هدوء مستفز ، وهـو يجيب بنفس البرود :

ـ الأسماء لن تصنـع فارقًا كبيرًا ، فى هـذه المرحلـة .. يمكنك أن تطلق علىّ اسم (جون) .

ردّد (ألدريتش) ، وقد أدرك مع الاسم واللكنـة ، الهويـة الحقيقية لزائره :

ـ (جون) ؟! أأنت ؟!

قاطعه أحمر الشعر ، فى صرامة عجيبة :

ـ أنا هنا لمقابلتك ، وإقناعك بالعمل لحسابنا .

انكب طن من الحذر ، فى عروق (ألدريتش) ، وهـو يقول :

ـ لحسابكم ! من تعنى بالضبط ؟!

مال أحمر الشعر إلى الأمام ، وألقى لهجته الألمانية خلف ظهره ، وهو يقول بإنجليزية لا تقبل الشك :

ـ نطلق على أنفسنا اسم المكتب السادس ، أما عندكم فى (ألمانيا) فيسموننا جهاز المخابرات البريطانى .

شـهق (ألدريتـش) ، واصطكت ركبتـاه فـى عنـف ، وتخاذلت ساقاه ، وعجزتا عـن حملـه ، فترك جسده يهوى على مقعد قريب ، وهو يغمغم :

ـ المخابرات البريطانية ؟!

نطقها ، وهو يواصل التحديق فى أحمر الشعر ، الذى لاذ بصمت بارد طويل ، وكأنما يمنحه كل ما يحتاج إليه من وقت ؛ لاسترداد توازنه ، والسيطرة على رباط جأشه ، واستيعاب الموقف كله ، قبل أن يقول :

ـ قل لى يا هر (ألدريتش) ، أمازلت تبغض النظام النازى ؟!

تردَّد (ألدريتش) ، وهو يتطلَّع إليه فى حذر قلق ، فتراجع أحمر الشعر فى مقعده بهدوء ، وتابع ، وكأنه لم يكن ينتظر جوابًا :

ـ لو أنك كذلك ، ومستعد للتعاون معنا ، فسنقف جميعًا فى وجه المد النازى القديم .

وحمل صوته حزم وصرامة الدنيا كلها ، وهو يضيف :

ـ فما رأيك ؟!

والمدهش أن الوثائق البريطانية ، التى تم نشرها ، بعد مرور نصف قرن ، على نهاية الحرب العالمية الثانية ، لم تشر قط إلى جواب (رود ألدريتش) على هذا التساؤل الأخير ، بل ولم تتحدث عما حدث عقب ذلك اللقاء مباشرة ..

ولكنها حدَّدت ، وبمنتهى الوضوح ، أنه قد تغيرت أمور جذرية عديدة ، فى المرحلة التالية ..

ففجأة ، وعلى نحو أدهش معظم المعارضين السياسيين ، استعاد (رودلف ألدريتش) ، الشهير بـ (رود ألدريتش) ، نشاطاته الصحفية القديمة ، وميوله السياسية المعروفة ..

ولكن فى الاتجاه العكسى تمامًا !!

فبلا مقدمات ، بدأ (ألدريتش) يكتب بحماس منقطع النظير ، عن الفكر النازى ، وعن عبقرية وألمعية وانفرادية الفوهلر (أدولف هتلر) ، والمستقبل المبهر ، الذى ينتظر (ألمانيا) تحت قيادته ..

ومع هذا الانقلاب المفاجئ ، كان من الطبيعى أن يحاط (ألدريتش) فى (برن) ، بموجة من السخط والغضب ، من كل المعارضين للفكر النازى وأساليبه ..

ولكن (رود ألدريتش) تجاهل هذا تمامًا ..

ولأن (سويسرا) بلد محايد حر ، لم يحاول أحد منع (ألدريتش) من ترويج أفكاره الحماسية ، ولكن كل المنشقين عن النظام أعلنوا غضبهم منه ، واستنكارهم

لموقفه ، وتجاهلوه أو تحاشوه تمامًا ، حتى صار منعزلاً فى (سويسرا) ، يتغنى وحده بعظمة النازيـة ، على الرغم من أن هذا لا يتناسب مع طبيعة عمله ، كمراسل صحفى عام ..

ولكن أسلوبه هذا آتى ثماره ، على نحو مدهش ..

فذات صباح ، طلب (جوزيف جوبلز) ، وزير الدعاية النازى ، مقابلة الفوهلر شخصيًّا ، ومـا إن التقى بـه ، حتى وضع أمامه أحد مقالات (ألدريتش) ، قائلاً :

ـ هل قرأت مقالات هذا الرجل أيها الزعيم ؟!

ألقى (هتلر) نظرة متعالية على الصحيفة ، قبل أن يقـول بخشونة :

ـ اقرأها يا (جوزيف) .

وعـاد (جوبـلز) يلتقـط الصحيفـة ، وراح يقـرأ مقـال (رود ألدريتش) فـى حمـاس واضـح ، تضاعف أكثر ، مع كلمات الصحفى المنمقة الأنيقة ..

ورويدًا رويدًا ، جذب الأمر اهتمـام (هتـلر) ، خاصـة وأن المقال كان يشيد به ، وبفكره ، وتخطيطه ، ويتنبأ بعلو شـأن (ألمانيا) تحت قيادته ، و...

« مقال رائع يا (جوزيف) ! »

نطقهـا الفوهلر فــى ارتيــاح ، وابتسـامة شـاحبة تعلـو شفتيه ، فى واحدة من المرات القليلة ، التى تخلى فيها عن صرامته الآرية الشهيرة ، فاندفع (جوبلز) يقول فى حماس واضح :

ـ وصحفى ممتاز أيها الزعيم !

ومال مستندًا إلى سطح المكتب براحتيه ، وهو يضيف :

ـ وحماس صحفى شهير مثله ، يمكن أن يصنـع الكثير ، عندما تنطلق الرصاصة الأولى .

التقى حاجبا الفوهلر ، وتراجع فى مقعده مفكـرًا ، وشبَّك أصابع كفيه أمـام وجهـه بضع لحظـات ، قبل أن يجيب فى اقتضاب ، وبتلك الصرامة ، التى التصقت بأسلوبه دومًا :

ـ بالتأكيد .

ولم يكن (جوبلز) بحاجة إلى أكثر من هذه الكلمة ، ليبدأ فى اتخاذ إجراءاته ..

وعلى الفور ..

أما (ألدريتش) نفسه ، فعلى الرغم من كراهيته الشديدة لنظام الحكم النــازى ، إلا أنــه واصــل مقالاتــه الحماسـية الملتهبة ، التى تشيد به ، وبمستقبله المزهر والمرتقب ..

وفى المخابرات البريطانية ، وتحت إشراف أحمر الشعر ، الذى لن تفصح الوثـائق البريطانيـة عن هويتـه ، قبل عام ٢٠١٥م ، راحت مجموعـة من الخـبراء تحـدّد مـا يكتبـه (ألدريتش) ، وكيف ومتى يقدمه ، بحيث يحدث أقوى تـأثير ممكن ، على النظام النازى كله ..

ومن الواضح أن أسلوبهم كـان عبقريًـا وناجحًـا للغايـة ، فمع بدايات عام ١٩٣٨م ، تلقى (رودلف ألدريتش) برقيـة عاجلـة مـن الصحيفـة ، التـى يعمـل لحسابها ، تطالبـه فيهـا بالعودة فورًا إلى (برلين) ..

وسقط قلب (ألدريتـش) بين قدميه ، وأسرعت عقليتـه التحليلية تدرس الموقف ، وتضع أمامه كل الاحتمالات ..

ولأن القلق كـاد يعصف بنفسـه ، أجرى اتصـالاً خاصًـا ، يفترض ألا يستخدمه إلا فى حـالات الطوارئ ؛ فـى محاولـة للقاء صاحب الشعر الأحمر ، الـذى سنطلق عليـه هنـا اسم (جون) ..

ولكن الأمر كان أسرع من أن يحضر (جون) شخصيًا للقائه ؛ لذا فقد التقى به منـدوب المخـابرات البريطانيـة فـى (برن) ، ليسمع منـه كل مخاوفـه وهلعـه ، قبل أن يختـم الألمانى حديثه ، قائلاً :

ـ مـاذا لـو أنهــم يسـتدرجوننى إلـى (برليـن) ؛ حتـى يعاقبوننى على تعاملى معكم ؟!

هزَّ البريطانى كتفيه ، مجيبًا فى هدوء :

ـ ولماذا يتجشمون كل هذا الجهد ، لو أن كل ما يرغبونه هو الإيقاع بك ؟!

وعلى الرغم من أن الجواب ليس شـافيًا علـى الإطـلاق ، فقد اكتفى به (ألدريتـش) ، واستقل القطـار التـالى ، عـائدًا إلى (برلين) ..

وهناك ، كانت فى انتظاره مفاجأة ..

مدهشة !!

* * *

٣ ـ أهل الثقـة ..

لم يكد (رودلف ألدريتش) ، الصحفى الألمانى المنشق ، يصل إلى مقر صحيفته النازية ، فى قلب (برلين) ، حتى فوجئ برئيس التحرير شخصيًا يهرع لاستقباله ، فى حرارة غير مسبوقة ، وهو يقول بابتسامة كبيرة :

ـ مرحبًا بعودتك يا هر (ألدريتش) .. كنت واثقًا من أنك ستعود إلينا يومًا .

صافحه (ألدريتش) فى حذر ، وهو يتساءل فى أعماقه عن سر هذه الحفاوة البالغة غير المسبوقة ، وأقلقه كثيرًا اللقب ، الذى سبق به رئيس التحرير اسمه ، مما جعله يغمغم فى توتر :

ـ إنها صحيفتى .. أليس كذلك ؟!

قهقه رئيس التحرير ، فى مرح لم يجد له (ألدريتش) ما يبرّره ، وخصوصًا عندما ربت الرجل على ظهره فى حرارة ومودة ، قائلاً :

ـ بالطبع يا هر (ألدريتش) .. بالطبع .

وتضاعفت دهشته أكثر وأكثر ، وتصارع فى عقله ألف سؤال وسؤال ، إلا أن كل هذا قد زال دفعة واحدة ، عندما قاده رئيس التحرير إلى مكتب كبير فخم ، وأشار إليه ، قائلاً بابتسامة كبيرة :

ـ هذا هو مكتبك الجديد يا هر (ألدريتش) .

هتف (ألدريتش) :

ـ مكتبى أنا ؟!

وهنا أجابه رئيس التحرير ، وهو يربت على ظهره مرة أخرى ، بنفس الحرارة :

ـ بالطبع .. إنه المكتب الوحيد ، الذى يليق برئيس قسم التحقيقات السياسية .. تقبل تهانئى يا هر (ألدريتش) .

وتسلم (ألدريتش) منصبه الجديد ، والدهشة تملأ كيانه كله ، وأدرك على نحو عملى ـ ولأوّل مرة ـ أن النفاق والتدليس مربحان للغاية ..

وبالذات فى تلك الظروف ..

ومع الوقت ، والمعلومات التى حصل عليها ، من كل الأطراف ، فهم الصحفى سر الترقية ، والحفاوة الشديدة التى

استقبله بها رئيس التحرير ؛ عندما بلغه من مصادره ، أن (جوبلز) شخصيًا ، كان وراء ترقيته ، وعودته إلى (برلين) ..

ووفقًا للخطة ، التى وضعها (جون) فى (بريطانيا) ، واصل (ألدريتش) مقالاته الحماسية الملتهبة ، فى الوقت الذى وضعت فيه (أوروبا) كلها يدها على قلبها ، فى انتظار ما ستفسر عنه المباحثات الفرنسية البريطانية ، مع قيادات النازى ..

وكثيرًا ما قضى (ألدريتش) لياليه ، وهو يعتصر عقله ، محاولاً استيعاب السر ، فى أن تدفعه المخابرات البريطانية إلى كتابة مقالات كهذه ، تلهب حماس الجميع ، باعتراف معارضيه أنفسهم ، ما دامت الأمور تشتعل فى (أوروبا) إلى هذا الحد !!

ولو أنه اكتسب عقلية رجال المخابرات البريطانية ؛ لأدرك الأمر بصورة مختلفة تمامًا ..

فالقسم الذى يرأسه (جون) ، كان يرى أن الحرب هى النهاية الحتمية ، والمصير الذى لا فكاك منه ، ما دام (أدولف هتلر) يتزعم (ألمانيا) ..

ولما كانت كل محاولات اغتياله قد باءت بالفشل ، فقد راح أفراد هذا القسم يتعاملون مع الموقف ، وكأن الحرب قد أصبحت حقيقة واقعة ، واستعدوا لاندلاعها ، فى أية لحظة ..

ولهذا انتقوا (رودلف ألدريتش) ، من بين جميع المنشقين عن النظام النازى ، باعتبار أنه لم يعلن انشقاقه هذا ، أو يفصح عنه أبدًا ، بدليل عدم اعتقاله أو السعى لاغتياله ، من قبل فرقة التصفية ، التى أنشأها (هملر) ..

ولأن النظام النازى مصرٌّ على المواجهة ، إن عاجلاً أو آجلاً ، فقد رأى (جون) وفريقه أن مقالات (ألدريتش) ، مهما بلغت سخونتها ، لن تصبح أبدًا السبب فى اندلاع الحرب أو منعها ..

ولكنها ستمنحه هو تميزًا خاصًا ..

وخاصًا جدًا ..

ولقد أدرك (ألدريتش) بنفسه هذه الحقيقة ، عندما فوجئ ، فى أوائل عام ١٩٣٩م ، باستدعاء لمقابلة وزير الدعاية النازى (جوزيف جوبلز) .. شخصيًا ..

وأمام (جوبلز) ، بذل الصحفى جهدًا يفوق طاقته ؛ ليبدو متماسكًا يقظًا ، وحاول عبثًا كتمان ارتجافته ، التى لم يعلق عليها (جوبلز) ، وإن راقت له فى الواقع ؛ لأنها كانت دليلاً علـى قوته ، وسطوته ، والرهبة فى قلوب الألمان تجاهه ..

وفى اقتضاب صارم ، قال (جوبلز) :

ـ نريدك هنا .

خُيِّل لـ (ألدريتش) أنه لم يفهم العبارة جيِّدًا ، فتساءل بمنتهى الحذر :

ـ هنا ؟!

أجابه (جوبلز) بنفس الصرامة :

ـ نعم .. هنا .. الفوهلر يريد مستشارًا صحفيًا ، خلال المرحلة القادمة .. ولقد وقع اختيارنا عليك .

شعر (ألدريتش) بارتجافة عنيفة ، تسرى فى كيانه كله ، ولم ينجح أبدًا فى كتمان الذهول ، الذى سيطر على كل خلية فى جسده ، وانحفر بوضوح على ملامحه ، على نحو راق ـ أيضًا ـ لوزير الدعاية النازى ، الذى حافظ على صرامته ، وهو يقول :

ـ أحضر كل ما تحتاج إليه ؛ فستقيم هنا خلال الفترة القادمة .. هيا .. لا تحدق فى وجهى كالأبله هكذا .. هيا .

وغادر (ألدريتش) مكتب (جوبلز) ، وكل ذرة فى كيانه تنتفض ، وعقله عاجز عن تصديق ما حدث ..

لحظتها أدرك أن (جون) وفريقه عباقرة ، وأن خطتهم قد نجحت نجاحًا منقطع النظير ، حتى إنه سيدخل مقر الفوهلر شخصيًا ..

ومن فرط حماسه وانفعاله ، كان (ألدريتش) يرغب بشدة فى إبلاغ البريطانيين بما حدث ، إلا أن كلمات (جون) الحازمة ترددت فى ذهنه :

ـ فى المرحلة الأولى ، لا تحاول الاتصال بنا ، بأى حال من الأحوال ، مهما كانت أهمية ما لديك .. انتظر حتى نتصل نحن بك .. ولا تمل الانتظار .. أبدًا .

وكما أمره (جوبلز) ، أحضر (ألدريتش) حقيبة صغيرة ، تضم متطلباته الرئيسية ، واحتياجاته فى أضيق الحدود ، وانتقل إلى مقر الفوهلر ..

وعلى الرغم من أنه لم يلتق به شخصيًّا ، طوال الأسبوع التالى بأكمله ، إلا أنه امتلأ بالانفعال والحماس ، وهو يرى بعينيه شخصيات وقادة ، يكفى ذكر أسمائهم لإثارة الرعب ، فى قلب أشد الرجال شجاعة وبأسًا ..

وطوال ذلك الأسبوع ، لم يقم (ألدريتش) بأى عمل ، ولم يطالبه (جوبلز) ، أو أحد معاونيه بكتابة حرف واحد ، بل ولم يبال أحدهم بقراءة ما تطوَّع بكتابته من مقالات لتمجيد الفوهلر وسياسته ..

وهنا ، استعاد الصحفى كل مخاوفه وتوتّراته !

وفى أعماق نفسه ، بدا له أن جلبه إلى مقر الفوهلر ، كان يستهدف إبعاده عن صحيفته ، ومنعه من مواصلة كتاباته لسبب ما ..

ومع تصوره هذا ، انكمش فى حجرته ، فلم يفارقها أو يخرج منها أبدًا ، حتى فوجئ بزيارة من (جوبلز) شخصيًّا ..

كان الرجل يبدو صارمًا قاسيًا كعادته ، وهو يقف أمامه ، ويعقد كفيه خلف ظهره ، قائلاً :

ـ كيف يمكنك أن تثبت ولاءك للفوهلر ؟!

ارتبك (ألدريتش) ، وحار فى البحث عن الجواب ، ثم لم يلبث أن قال ، بصوت مبحوح ، من فرط الانفعال والتوتر :

ـ وكيف يمكن إثبات هذا يا جنرال ؟!

حَدَجَه (جوبلز) بنظرة صارمة طويلة ، قبل أن يجيب :

ـ لدينا وسيلة .

نطقها بقسوة عجيبة ، هوى لها قلب (ألدريتش) بين قدميه ، وهو يردِّد ، فى صوت بلغ خفوته حدًّا ، يجعل سماعه عسيرًا :

ـ وسيلة ؟!

شدَّ (جوبلز) قامته ، وأجاب بكل الصرامة :

ـ نعم .. وسيلة مضمونة !

قالها ، وغادر الحجرة ، قبل أن يوضح أو يفسر وجهة نظره ، ولم تمض دقائق قليلة على خروجه ، حتى جاء اثنان من ضباط (الجستابو) الأشداء ، واصطحبا الصحفى المرتجف ، إلى قبو مقر الفوهلر ..

وهناك أجلساه على مقعد معدنى بارد ، وأحاطا به بمنتهى الصرامة ، فى نفس الوقت الذى ظهر فيه (جوبلز) بنفسه ، يصطحبه رجل فى معطف الأطباء ، وعاد (جوبلز) يشد قامته ، قائلاً :

ـ الطبيب سيحقنك بعقار خاص ، قبل أن نلقى عليك أسئلتنا .

تساءل (ألدريتش) بمنتهى الحذر :

ـ أى عقار هذا ؟!

وهنا ، أجابه الطبيب ، بابتسامة لم ترق له أبدًا :

ـ فى الواقع هو مصل .. مصل الحقيقة .

وعاد قلب الصحفى يهوى بين قدميه ..

وبمنتهى العنف .

★ ★ ★

٤ـ الحقيقة ..

مصل الحقيقة ، أو بنتوثال الصوديوم ، عقار خاص جدًا ، اشتهر النازيون باستخدامه ، خلال الحرب العالمية الثانية ، عند استجوابهم لأسراهم ومعتقليهم ؛ إذ إنه يضع المخ البشرى فى حالة من التوهان وعدم التوازن ، بحيث يعجز صاحبه عن الابتكار أو التخيل ، مما يدفعه إلى الإدلاء بالحقيقة .. والحقيقة وحدها ، عندما يتم توجيه أية أسئلة مباشرة إليه ..

وبحكم عمله كصحفى ، وبحكم انتمائه للمخابرات البريطانية ، كجاسوس فى قلب القيادة النازية ، كان (رودلف ألدريتش) يدرك جيدًا ماهية مصل الحقيقة ..

وما سيحدث عند حقنه به ..

وعلى الرغم من ذلك الرعب ، الذى سرى فى جسده ، من قمة رأسه ، وحتى أخمص قدميه ، إلا أنه راح يسترجع بمنتهى الدقة كلمات وتعليمات (جون) ، وضابطا (الجستابو) يصحبانه إلى قبو مقر الفوهلر ؛ للتيقن من ولائه للنظام النازى ..

ودون أن يحـاول إخفـاء توتـره ، قـال (ألدريتـش) للضابطين بصوت مرتجف :

- هل .. هل يمكننى تناول قدح من الماء ؟

لم يبد عليهما الحماس لمطلبه ، إلا أنهما كانا يعلمان أنـه ليس معتقلاً أو مشتبهًا بـه ، وأنـه سيخضع لاختبار تـأييد ولاء فحسب ؛ لـذا فقد سـمحا لـه بتنـاول بعـض المـاء ، وباستخدام دورة المياه أيضًا ؛ لإفراغ توتره وعصبيته ، قبل أن يعاودا اصطحابه إلى القبو ..

وعندما أصبح داخل القبو ، كمـا سبق أن أوضحنـا ، حـاول أن يستسلم للموقف كله ، وهو يشعر ببرودة المقعد المعدنى ، و ...

وانحنى الطبيب نحوه ، وهو يبتسم ابتسامة جذلة بغيضة ، وحقنه بالمصل .. مصل الحقيقة ..

وفى صوت يحمل بهجة مدهشة ، وكأنمـا يستمتع بكل لحظة من عمله ، اعتدل الطبيب ، وتألقت عيناه ، قائلاً :

- عشر دقائق على الأكثر ، وسيبدأ المصل عمله .

وران على القبو صمت رهيب ..

رهيب ، حتى أن (ألدريتش) قد شعر وكأن قلبه نفسه قد توقف عن النبض ، احترامًا لرهبة الموقف وتوتره ..

وبالنسبة إليـه ، ومـع العيون الصارمـة ، المركزة على وجهه ، بدت له الثوانى أشبه بالساعات ، والدقـائق وكأنها دهور كاملة ..

وأخيرًا ، أغلق عينيه ، وبدا أشبه بالنائم ، فقال الطبيب ، فى جذل أكثر :

- يمكنكم استجوابه الآن .

ومع قوله ، خفق قلب (ألدريتش) بقوة ..

بل بمنتهى القوة ..

والواقـع أن الاستجواب نفسـه لـم يستغرق سـوى ثـلاث دقائق فحسب ، سأله (جوبلز) خلالها عن اسمه وهويته ، ثم طرح سؤاله مباشرة ..

هل يشـعر بـالولاء والانتمـاء للنظـام النـازى ، وزعيمـه (أدولف هتلر) ؟!

وعندما انتهى الاستجواب ، بدت على الطبيب خيبة الأمل ، وكأنما خسر مشهدًا عظيمًا ، ثم انحنى يحقن الصحفى بعقار مضاد لمصل الحقيقة ، قبل أن يصطحبه (جوبلز) إلى حجرته شخصيًا ، وهو يقول ، دون أن يتخلى عن صرامته التقليدية :

- تقبل اعتذارنا يا هر (ألدريتش) ، ولكنه إجراء أمنى حتمى ، للحفاظ على أمن الفوهلر وسلامته .

غمغم (ألدريتش) ، وهو يبذل جهدًا رهيبًا ، للسيطرة على أعصابه ومشاعره :

- بالتأكيد يا جنرال .. بالتأكيد .

وعندما بلغا حجرته ، ربت (جوبلز) على كتفه ، قائلاً :

- استعد يا رجل .. ستلتقى بالزعيم قريبًا .

ولم يكد يغلق الباب خلفه ، حتى انهار (ألدريتش) تمامًا ، وهو يسترجع تفاصيل تلك اللحظات الرهيبة ..

فمن حسن حظه ، أو من حسن تدبير المخابرات البريطانية ، أنهم كانوا يتوقعون هذا الترتيب الأمنى وينتظرونه ؛ لذا فقد منحوه تلك القنينة الصغيرة ، التى تحوى مادة مضادة لمصل الحقيقة ، طلبوا منه تناولها ، فور معرفته بأنهم سيعرضونه إلى استجواب أمنى وقائى ..

وهذا ما فعله بالضبط ..

فعندما سمح له ضابطا (الجستابو) ، باستخدام دورة المياه ، أخرج القنينة الصغيرة من جيب خفى فى سترته ، وجرع محتوياتها كلها ، ثم تخلص منها ، بالأسلوب الذى لقنه إياه (جون) ..

وعندما تم حقنه بمصل الحقيقة ، شعر برأسه يدور قليلاً ، وبتثاقل فى جفنيه ، واسترخاء نسبى فى أطرافه ..

ولكن ذهنه كان يقظًا صافيًا ..

ومع أسئلة (جوبلز) ، بدأ يلعب الدور ، الذى تدرب عليه فى لقاءاته مع (جون) ، ورجال المخابرات البريطانية ..

لقد أغلق عينيه ، وبدا شاردًا ، ورتب إجاباته كلها ، بحيث تبدو تلقائية بسيطة .. وصادقة ..

وكما أخبره (جون) ، كانت هذه أدق مرحلة فى العملية كلها ..

ولقد تجاوزها بنجاح .. كبير ..

وربما لم يدرك مدى نجاحه ، وهو منكمش فى فراشه الصغير ، يسترجع تفاصيل تلك اللحظات الرهيبة ، إلا أنه

أيقن منه واستوعبه تمامًا ، عندما تم استدعاؤه ، فى التاسعة مساءً ، لمقابلة أخطر رجلين ، فى عهد الرايخ الثالث كله ..

(هتلر) .. و(هملر) ..

لحظتها جف حلقه ، من فرط التوتر والانفعال ، وأدى التحية النازية فى قوة ، قبل أن يرمقه (هتـلر) بنظـرة طويلة ، ثم يقول فى صرامة :

- دولتنا تستعد لاستعادة أمجادها القديمـة ، وعليك أن تؤهل الشعب لهذا .

وأجابه هو فى سرعة :

- أنا رهن إشارتك أيها الفوهلر .

ورمقه (همـلر) ، قـائد (الجستابو) الرهيـب ، بنظـرة نارية قاسية ، إلا أنه لم ينبس ببنت شفة ، فى حين ألقى (هتلر) عبارته ، وتجاهله تمامًا بعدهـا ، وبدأ فى مناقشة أحد الأمور الدارجة مع (هملر) ..

وفى لباقة ولياقة ، انسحب (ألدريتش) ، وهو يؤدى التحية النازية مرة أخرى ، فى قوة وحماس ، وأسرع إلى حجرته ، دون أن يستوقفه أحد ، وقد غمر حماس مدهش كيانه كله ..

وفى حجرته ، راح يلهث .. ويلهث .. ويلهث ، من فرط توتره وانفعاله ، وقضى مـا يقرب مـن سبع دقـائق كاملـة ، قبل أن يستعيد رباط جأشه ، ويلتقط نفسًا عميقًا ، ثم يتجـه إلى المكتب الأنيق ، فى ركن الحجرة ، ويمسك قلمه ، ويبـدأ فى كتابة أولى مقالاته ، بعد نجاح الجزء الأول من الخطة ..

وفى (لندن) ، حصل (جون) على نسخة الصحيفـة النازيـة ، التى بدأت نشر مقالات (ألدريتش) ، ومن خلال كلماته وعباراته وجمله ، تلقى أول رسالة متفق عليها ..

الرسالة ، التى تشير إلى أن الجزء الأول مـن الخطـة قد نجح ..

وعلى نحو مدهش ..

ومع فريقه ، اجتمع (جون) ، وزف إليهم الخبر ، فبدا عليهم الارتياح ، وتساءل أحدهم فى اهتمام :

- الآن سيمكنه أن يرسـل إلينا كل المعلومـات ، التـى يمكنه الحصول عليها ، أليس كذلك ؟!

تراجع (جون) فى مقعده ، قائلاً فى حزم :

ـ لا .. ليس بعد .. كل ما عليه ، فى هذه المرحلـة ، أن يثبت أقدامه فى مقر الفوهلر ، وأن يبلغنا بالتطورات الكبيرة فى الأمر ، عبر مقالاته فحسب .

تساءل آخر :

ـ ومتى نبدأ الاستفادة القصوى منه إذن ؟!

التقط (جون) نفسًا عميقًا ، وأجاب بمنتهى الصرامة :

ـ مع الطلقة الأولى ..

فى نفـس اللحظـة ، التـى نطق فيها عبارتـه ، كـان أحد ضبـاط (الجستابو) يدلـف إلـى حجـرة (ألدريتش) ، وهـو يقول بمنتهى الصرامة :

ـ الجنرال (هملر) يطلب مقابلتك فورًا ، يا هر (ألدريتش) .

وعاد التوتر يسرى فى جسـد الصحفـى ، وهـو يصطحب الضـابط إلـى مكتـب (همـلر) ، وعقلـه يطرح ألـف تسـاؤل وتساؤل ، عن سر هذا الاستدعاء العاجل ..

وفى مكتبه ، استقبله (همـلر) فى شىء من الصرامـة ، وغاص ببصره فى أعمق أعماقه ، أو هكذا خيل له ، إلا أنـه

لم يطرح عليه سوى بعض الأسئلة العادية ، قبـل أن يسمح له بالعودة إلى حجرته مرة أخرى ..

وعلى الرغم من دهشته ، لم يحاول (ألدريتـش) مناقشتـه ، وعاد إلى حجرته ، إلا أنه لم يكد يدلف إليها ، حتى وجد أمامه مفاجأة !

مفاجأة ارتجفت لها كل أطرافه ..

بعنف !!

★ ★ ★

٥ ـ هــــروب ..

لسبب ما ، لم يغمض لرجل المخابرات البريطانى ، الذى أطلقنا عليه اسم (جون) ، جفن ، طوال تلك الليلة ، حتى إنه جلس فى شرفة منزله ، فى طقس شديد البرودة ، يدخن غليونه ، دون أن ينطق بحرف واحد ، وذهنه يستعيد كل تفاصيل عملية (رودلف ألدريتش) ، ويناقش كل المخاطر والانفعالات ..

كان أكثر ما يقلقه هو قدرة (ألدريتش) نفسه على المواصلة والاحتمال ..

فبحكم خبرته كرجل مخابرات محترف ، كان يدرك جيدًا أن نظم الأمن النازية ، التى يرأسها (هينرش همـلر) ، تتبنى نظرية الشك الدائم ، وأنها لن تمنح ثقتها لمدنى قط ، مهما حاز ثقة الفوهلر نفسه ..

وهذا يعنى أنهم سيواصلون اختباره ، ومراقبته ، والشك فى أمره طوال الوقت ..

وهنا ، تبلغ احتمالات الخطأ أقصاها ، واحتمالات سقوط (ألدريتش) منتهاها ..

والحقيقة ، التى أعلنتها الوثائق ، التى كتبها (جون) بنفسه فى تقاريره الرسمية ، أنه لم يكن يخشى سقوط (ألدريتش) ، بقدر ما يخشى فشل العملية ، التى تولاها على مسئوليته الشخصية ، وراهن عليها بمستقبله كله ..

والسؤال ، الذى أدار عقله ، طوال تلك الليلة ، التى بدت وكأنها لا نهاية لها ، هو : ما الذى ستفعله نظم الأمن النازية ، فى المرحلة التالية ؟!

وليلتها بقى سؤاله بلا جواب ..

على الإطلاق ..

أما (ألدريتش) نفسه ، فقد كان يواجه شكوك (الجستابو) بنفسه ، فى حجرته الصغيرة ، فى مقر الفوهلر ..

ربما بدت له الحجرة كعادتها ، هادئة منظمة ، إلا أن عينيه ، اللتين تم تدريبهما على قوة الملاحظة ، انتبهت إلى مجموعة من التغيرات البسيطة ، التى أكدت له حقيقة ، لا تقبل الشك ..

لقد تم تفتيش حجرته ..

وبمنتهى الدقة !

وكان هذا يعنى أنه ، فى الواقع ، لم يستقر فى مهمته بعد ، أو أنهم قد تلقوا أية معلومة جديدة ، أثارت شكوكهم بشأنه ..

وعندما استدعاه (هملر) إلى مكتبه ، كانت هذه مجرد وسيلة استدراجية ؛ لإبعاده عن حجرته ، وإجراء هذا التفتيش الدقيق ..

ولا أحد ينكر أن موقفه هذا كان شديد الدقة والصعوبة بحق ، حتى إنه من السهل علينا أن نستوعب ، لماذا قضى ليلته مسهدًا أرقًا ، حتى أشرقت شمس اليوم التالى ، واستدعاه (جوبلز) إلى مكتبه ، فذهب إليه شاحب الوجه ، منتفخ العينين ، يبدو الإرهاق واضحًا ، على كل لمحة من لمحاته ، وعلى نحو أدركه (جوبلز) على الفور ، فتراجع فى مقعده ، وهو يسأله فى قلق ، اختفى معظمه خلف صرامته التقليدية :

ـ ماذا بك .. ألم تنم جيدًا أمس ؟!

كان (ألدريتش) ينوى تجاهل الأمر ، وعدم الإشارة إليه ، إلا أن ذهنه المجهد ، من قلة النوم ، جعله يجيب فى تلقائية ، حملت كل توتره وانفعاله :

ـ لقد تم تفتيش حجرتى أمس .

بدا من الواضح جدًا أن الخبر قد أدهش (جوبلز) بصدق ، فقد ارتفع حاجباه عن آخرهما ، حتى كادا يمتزجان بمنابت شعر رأسه ، قبل أن يعودا للانعقاد بشدة ، وهو يقول :

ـ اطمئن .. لن يحدث هذا مرة أخرى .

قالها وزير الدعاية النازى ، ثم غادر مكتبه ، وطلب مقابلة الفوهلر على الفور ..

ولم تسجل الوثائق البريطانية ، أو محاضر الاجتماعات النازية العسكرية ، حرفًا واحدًا مما دار بين (جوبلز) و(هتلر) ، فى ذلك اليوم إلا أنه ، واعتبارًا من مساء اليوم نفسه ، بدأ (هملر) فى معاملة (ألدريتش) باحترام ومودة ، بل ومنحه ابتسامة باهتة ، وهو أمر يندر أن يفعله مع أى كائن كان ، وهو يستقبله فى حفل عشاء للقادة ، على شرف الفوهلر ..

ليلتها ، استعاد (ألدريتش) ثقته وهدوءه ، وشعر بالاسترخاء والارتياح ، وهو يتحرك فى بساطة وحرية ، بين جنرالات النازية ، ومعاونى ومساعدى (أدولف هتلر) ..

وليلتها ـ أيضًا ـ صافحه الفوهلر شخصيًا ، وخاطبه باسمه مجردًا ، وطلب منه أن ينتبه كثيرًا ، فى المرحلة القادمة ..

وحول مائدة العشاء ، التى كان هو المدنى الوحيد فيها ، راح الجنرالات يتحدثون بحرية ، عن (أوروبا) ، وطموحات (هتلر) ، وخططه المستقبلية ، و...

وسجل عقل (ألدريتش) كل هذا ..

واختزنه ..

وشعر بتوتر ما بعده توتر ، وهو يستعيد كلمات (جون) ، الذى طلب منه عدم الاتصال بهم ، مهما كان ما لديه من أسرار ، حتى يتلقى اتصالهم هم به ..

فعندما عاد إلى حجرته ، كانت لديه كومة هائلة من الأخبار والمعلومات ، يسيل لها لعاب أى صحفى ، فى الدنيا كلها ، دون أن يمكنه نشر حرف واحد منها ..

ويا له من عذاب !

ووفقًا لتوجيهات (جوبلز) ، والتعليمات التى يتلقاها من الفوهلر شخصيًا ، راح (ألدريتش) يكتب مقالاته الحماسية ، وينشرها فى كبريات الصحف ، لتقرأها (ألمانيا) كلها ، وليستقى منها (جون) وفريقه ، كل ما يهمهم معرفته ، فى المرحلة الحذرة التى يمر بها العالم كله ، وتمر بها (أوروبا) بالذات ..

وعبر قسم الدراسات الخاصة ، أدرك (جون) ، كما أدركت المخابرات البريطانية كلها ، من تحليل مقالات (ألدريتش) ، أن الحرب صارت وشيكة ..

أما (ألدريتش) نفسه ، فقد أدرك أنها قادمة ، فى غضون أسابيع قليلة ، وخاصة عندما استدعاه إليه (جوبلز) ، وسأله فى اهتمام شديد :

- قل لى يا (ألدريتش) : هل تؤمن بأنه من الضرورى أن نستعيد كل ما فقدناه ، فى معاهدة (فرساى) الحقيرة ؟!

ودون تردُّد ، أجابه (ألدريتش) :

- بالتأكيد يا جنرال !

وهنا ، مال (جوبلز) إلى الأمام ، وسأله فى اهتمام أكثر :

- وماذا عن (النمسا) ؟!

وأدرك (ألدريتش) الموقف على الفور ، كصحفى قديم محترف ..

واعتبارًا من صباح اليوم التالى ، بدأ كتابة مقالات ملتهبة ، تهاجم معاهدة (فرساى) ، وتنكر الألمان بما فقدوه بسببها ، وتتحدث عن ضرورة استعادة (النمسا) ، التى هى جزء لا يتجزأ من الدولة الألمانية العظيمة ..

والتقطت المخابرات البريطانية الرسالة ..

وأعلنت حالة الطوارئ القصوى ، فى منتصف فبراير ١٩٣٩م ..

وفى مارس ، بعد أقل من شهر واحد ، انطلقت القوات النازية تستولى على (بوهيميا) و(مورافيا) ، وتشعل فتيل الحرب العالمية الثانية ..

وعلى الرغم من أن الأمر لم يكن مفاجئًا أبدًا ، إلا أنه كان بمثابة الصدمة ، لكل مخلوق فى العالم أجمع ؛ إذ كان يعنى أن عجلة الحرب قد دارت ، وأنها لن تتوقف ، إلا بعد أن تريق أنهارًا من الدم ، بلا حدود ..

وفى إبريل ١٩٣٩م ، تلقى (رودلف ألدريتش) برقية ، من أحد أصدقائه فى (برن) ، حيث كان يعمل سابقًا ، يحاول من خلالها الاطمئنان عليه ، ومعرفة أحوال (ألمانيا) ، بعد اشتعال الحرب ..

وكما ينبغى أن يفعل أى مواطن نازى صالح ، سلم (ألدريتش) البرقية للجنرال (هملر) ، قائد (الجستابو) ، ثم عاد إلى حجرته ، ليكتب مقالاً ملتهبًا آخر ، عن حق (ألمانيا) فى استعادة (النمسا) ..

وفى هذه المرة ، كانت كل ذرة فى كيانه ، تلتهب بحماس حقيقى ..

فالبرقية ، التى لن يتوصل منها (هملر) وجهازه إلى أى شىء ، كانت فى واقعها إشارة البدء ، التى تعلن (ألدريتش) أن مرحلة النشاط قد حانت ، وأن عليه أن يجمع كل المعلومات الممكنة ، وأن يرسلها إلى البريطانيين أولاً بأول ، ووفقًا للوسيلة المتفق عليها منذ البداية ..

ومع مقالاته القوية ، بدأ (ألدريتش) يقوى صلاته وعلاقاته مع جنرالات النازية ، بحجة معرفة ما ينبغى كتابته ، فى كل مرحلة قادمة ..

ودون حتى أن يبذل الكثير من الجهد ، كانت ثقة (جوبلز) والفوهلر فيه ، تحل ألسنة معظم الجنرالات ، فى تعاملاتهم معه ..

وبدقة مدهشة ، ووسيلة خفية متفق عليها ، كان (ألدريتش) يدون كل ما يحصل عليه من تفاصيل ومعلومات ، وينتهز أول فرصة ، للخروج من مقر الفوهلر ، بحجة شراء أوراق أو حبر أو أقلام ؛ ليسلم كل ما لديه لرجل عجوز ، يمتلك مكتبة متواضعة ، فيعمل هذا العجوز على توصيلها إلى المخابرات البريطانية ، عبر جهاز اتصال لاسلكى ، تم إخفاؤه فى قلب المكتبة ، بأسلوب سحرى ودقيق للغاية ..

وعبر (ألدريتش) ، علم رجال المخابرات البريطانية مسبقًا بعقد ميثاق عدم الاعتداء ، بين النازيين والسوفيت ، فى أغسطس ١٩٣٩م ، وبالهجوم على (بولندا) ، فى أول سبتمبر ..

وأعلنت (إنجلترا) و(فرنسا) الحرب على (ألمانيا) النازية ..

واتخذت الأمور منحنى آخر ..

وبينما استغرق (ألدريتش) فى عمله الصحفى والمخابراتى ، فوجئ باستدعاء جديد ، وبأمر عجيب يصدر بشأنه ..

عجيب جدًا !!

★ ★ ★

٦ ـ مدنى .. وعسكرى ..

دلف (رودلف ألدريتش) ، الصحفى الألمانى المنشق ، الذى يعمل خفية ، لحساب المخابرات البريطانية ، مكتب الدعاية النازى (جوزيف جوبلز) ، وهو يقدم قدمًا ويؤخر أخرى ، وبذل جهدًا حقيقيًا ، ليبدو هادئًا متماسكًا ، وهو يسأله فى احترام :

ـ فى خدمتك يا جنرال .

اعتدل (جوبلز) على مقعده ، وتأمله بنظرة صارمة فاحصة كعادته ، قبل أن يشبك كفيه أمامه ، وهو يقول :

ـ الواقع أن الفوهلر له اعتراض بشأنك يا (ألدريتش) .

خفق قلب الصحفى فى عنف ، وهو يتساءل :

ـ ولماذا يا جنرال ؟! ألم ترق له مقالاتى الأخيرة ؟!

هزّ (جوبلز) رأسه نفيًا ، وهو يقول :

ـ مقالاتك كلها عظيمة ، ولكن هذا ليس وجه اعتراضه .

وانخفض صوت (ألدريتش) ، وهو يتساءل بقلق عارم :

ـ ماذا إذن يا سيّدى ؟!

مطَّ (جوبلز) شفته السفلى ، وهو يتطلَّـع إليه طويـلاً ، قبل أن ينهض من خلف مكتبه ، ويعقد كفيه خلف ظهره ، قائلاً :

ـ فى الاجتماع الأخير ، لـم يرق للفوهلر مظهرك وسط القادة ، بزيك المدنى هذا .

تمتم (ألدريتش) ، وأعماقه كلها ترتجف :

ـ ولكننى مجرد صحفى يا جنرال ، و...

قاطعه (جوبلز) ، وهو يواصل ، على نحو يوحى بأنّه لم يكـن ينتظر سماعه :

ـ لذا ، فقد أصدر أمرًا مهمًّا بشأنك .

وهنـا ، جفَّ حلق (ألدريتش) ، وتجمـدت عينـاه فـى محجريهما ، وأطلق عقله عشرات الافتراضات المزعجة فـى رأسه ، قبل أن يواجهه (جوبلز) مباشرة ، وهو يضيف فى حزم :

ـ ومنذ اليوم ، سترتدى زيًّا عسكريًّا .

حدَّق (ألدريتش) فيـه ، بكل دهشـة الدنيا ، وهـو يتـابع بنفس صرامته الجافة المعهودة :

ـ ستحمل رتبة فى جيش النازى العظيم ، وسنمنحك تصريحًا خاصًّا ، يمنحك امتيازات ضابط (جستابو) .

خُيِّل للصحفى أن قلبه ينتفض بين ضلوعـه ، ويكـاد يثب من حلقه ، فى حين ربت (جوبلز) على كتفه ، قائلاً :

ـ تقبل تهانئى يا (ألدريتش) .

وقبل أن يهضم (رودلف ألدريتش) الموقف أو يستوعبه ، كان الترزى الخاص بالقيادة يأخذ مقاييسه ، ولـم تمض ساعة واحدة ، حتى أرسل إليه زيًّـا عسكريًّا ، يحمل رتبتـه الجديدة ، فى نفس الوقت الذى منحه فيه أحد ضباط الجستـابو هويتـه الخاصة !

ومع منتصف الليل ، كان الصحفى قد ودع حياته المدنيـة ، وبدأ مرحلة عسكرية ، لم تخطر بباله قط !!

وفى صباح اليوم بعد التالى ، حملت الصحيفة الألمانية الأولى مقال (رودلف ألدريتش) ، الذى تحدث فيه عن رتبتـه الجديدة ، ومدى فخره بها ، واعتزازه بـالجيش النـازى ، الذى لا يقهر (وهذا ما وصفه به بالضبط) ..

وفى (لندن) ، غمر الحماس فريق (جون) ، وبدا أفراده منتشين تمامًا بنجاحهم المدهش ، الذى جعل جاسوسهم الأوّل أحد أفراد القيادة العسكرية النازية ، فى زمن الحرب ..

أما (جون) نفسه ، فقد بدا هادئًا متماسكًا ، بل أقرب إلى البرود ، وهو يتطلّع إلى أفراد فريقه فى صمت ، قبل أن يقول فى حزم :

ـ ماحدث سيضاعف من أعباء (ألدريتش) ومسئولياته ، وسيجعل مهمته أكثر صعوبة ، وهذا ليس فى صالح خطتنا .. أبدًا .

ران على أفراد الفريق صمت مطبق ، وتخيل الكل أن تقديرهم للموقف كان خاطئًا تمامًا ، لولا أن تابع (جون) ، فى حزم أكثر :

ـ ولكن علينا أن نجيد استغلال الموقف ، وإلى أقصى حد ممكن .

وتنفس أفراد الفريق الصعداء ..

وتحت إشراف (جون) ، بدءوا مرحلة جديدة ، فى التعامل مع جاسوسهم الأوّل ، فى قلب القيادة النازية ..

كان التصريح الذى يحمله ، يمنحه حرية حركة كبيرة ، لا بد من استغلالها إلى أقصى حد ، وتطوير الجاسوس فى الوقت ذاته ، بحيث يمكنه الحصول على معلومات أفضل ، وبوسائل أكثر دقة ..

وبناءً على مكاتبة سرية ، بدأ (ألدريتش) مرحلة تدريبات خفية ، فى قلب (برلين) ..

ففى تلك المكتبة القديمة ، وعلى يد العجوز ، تلقى الصحفى المنشق تدريبات مكثفة ، على استخدام اللاسلكى ، والكتابة بالحبر السرى ، والتصوير الدقيق ، وجمع المعلومات ..

ومع نهاية الدورة ، التى استغرقت أسبوعين فحسب ، شعر (ألدريتش) أن كفاءته قد تضاعفت مرتين على الأقل ، وأن باستطاعته الآن القفز إلى مستويات جديدة ..

مستويات لم تخطر بباله من قبل قط ..

وعبر قنوات جديدة ، وباستخدام جهاز اللاسلكى فى المكتبة ، ومن خلال اتصالاته وعلاقاته ، والاجتماعات التى ينضم إليها بنفسه ، فى مقر القيادة ، راح (رودلف ألدريتش) يرسل فيضًا من المعلومات إلى المخابرات البريطانية ، مما أفادها كثيرًا فى المرحلة التالية ، وخصوصًا بعد سقوط (فرنسا) ، واستقرار قوات (هتلر) فى قلب (أوروبا) ..

ولأنه صار لسان القيادة فى أشهر وأكبر الصحف الألمانية ، بدأ الجنرالات يتعاملون معه ببساطة وثقة ، زال معها توتره تمامًا ، وصار أكثر تماسكًا وثقة بالنفس ، مما ضاعف من لباقته ولياقته ، وصلاته القوية بالجميع ..

ولكن ثغرة كبيرة كهذه ، لم تكن بالأمر الذى يمكن أن يتغاضى عنه نظام الأمن النازى ، وبالذات عندما يكون على رأسه رجل ، مثل (هنريش هملر) ..

لقد أدرك الأمن أن هناك مصدرًا لتسريب المعلومات حتمًا ، وأن هذا المصدر يحتل موقعًا شديد الحساسية ، مما دفع (هملر) إلى مقابلة الفوهلر ، ليخبره الأمر بنفسه ، ويقول :

ـ لو أردت رأيى أيها الزعيم العظيم ، فكل جنرال فى القيادة هو موضع شك ، حتى يثبت العكس ، ولا بد من إجراء تحريات واسعة حول الموقف .

وانعقد حاجبا (هتلر) فى شدة ، وبدا عليه غضب عارم ، من مجرد فكرة وجود جاسوس ألمانى ، يمكن أن يبيع وطنه للأعداء ، إلا أنه أجاب ، بمنتهى الحزم والصرامة ، وهو يلوح بيده بإشارة مبهمة :

ـ افعل ما يحلو لك يا (هملر) .. لا نريد جواسيس بيننا .

ومع عبارة كهذه ، كان من الطبيعى أن ينطلق (هملر) .. وإلى أقصى حد ممكن ..

وخلال شهر كامل ، تم استجواب كل جنرال فى القيادة كلها ، وبلغ الأمر ببعضهم حد الخضوع لمصل الحقيقة ..

والعجيب أن هذه الاستجوابات المكثفة ، ولسبب ما ، لم تشمل (رودلف ألدريتش) أبدًا ، بل ولم يتطرق إليه الشك على الإطلاق ..

وعلى الرغم من أن تسرب المعلومات لم يتوقف ، إلا أن استجوابات (هملر) لم تبلغ ما كان ينتظره ويتوقعه ..

ولم يمنع هذا من الإيقاع بجاسوسين ، من جنود مقر القيادة ، وإعدامهما رميًا بالرصاص ، فحاول (هملر) إقناع نفسه ، وإقناع القيادة كلها ، بأنه قد أنجز مهمته بنجاح ..

ولكن نزيف المعلومات لم يتوقف ..

لقد واصل (ألدريتش) عمله ، وبدأت القوات النازية تعانى من ضربات موجعة ، وهزائم قوية ، وخصوصًا على الجبهة السوفيتية ..

ومع أوائل عام ١٩٤٣م ، اضطر (هملر) ، أمام اندحار الجيش النازى ، فى مواضع عديدة ، إلى الاعتراف بأن ثقب المعلومات لم يرتق بعد ..

وكان عليه أن يجرى استجوابًا آخر ، أكثر اتساعًا ..

وأكثر دقة ..

وفى هذه المرة ، شملت قائمة المستجوبين اسم (رودلف ألدريتش) ..

ولكن (هملر) لم يلجأ إلى الأسلوب المباشر ، كما فعل من قبل ..

لقد قرَّر ، فى هذه المرة ، مراقبة كل من يعمل بالقيادة ، ومتابعتهم سرًّا ، وكشف كل ما يحاولون إخفاءه من معلومات ، حتى لو تعلقت بحياتهم الشخصية ..

ولقد أسفرت المراقبة عن كشف العلاقة السرية لثلاثة من الجنرالات بسكرتيراتهم ، وانحراف زوجة جنرال رابع ، و...

وكشف أيضًا تردُّد (ألدريتش) الكثير على تلك المكتبة البسيطة ..

وهنا ، ولأنه ذكى ومحترف ، ربط (هملر) الأمور ببعضها ، وأمر رجاله باقتحام المكتبة فجر اليوم التالى !

وبمنتهى العنف !!

* * *

٧ـ سقوط ..

عبر جواسيس وعيون آخرين ، فى قلب (برلين) ، بلغت (جون) وفريقه أخبـار تلك الشكوك الرهيبـة ، التى مـلأت نظام الأمن النازى ، تجاه كل العاملين فى مقر قيادة النازى ..

وباستثناء (هتلر) شخصيًا ، قرَّر (هملر) مراقبة الجميع ..

وأدرك (جون) وفريقه هذا ..

وفى اجتماع عاجل لهم ، واجه (جون) فريقه ، قائلاً :

ـ سقوط (ألدريتش) أصبح حتميًا هذه المرة ، ولا بد من استعادته بأى ثمن .

قال أحد شباب الفريق فى توتر :

ـ ولكن الأمور مشتعلة إلى أقصى حد يا سيِّدى ، ولا يمكننا إنهاء عملية الآن .. نحن بحاجة إلـى كل مـا يرسلـه ، أكثر من ذى قبل .

مال (جون) نحوه ، قائلاً :

ـ لو لم نستعده الآن ، فقد يعنى هذا القضاء عليه نهائيًا .

تبادل أفراد الفريق نظرة صامتة ، قبل أن يقـول أحدهـم ، معبرًا عن رأى الجميع :

ـ معذرة يا سيِّدى ، ولكننا نقبل المخاطرة .

تراجع (جون) فى مقعده ، متسائلاً :

ـ ما الذى يعنيه هذا بالضبط ؟!

أجابه الرجل فى حزم :

ـ ما دمنا نحتاج إلى ما يرسله (ألدريتش) من معلومـات ، وما دام ألمانيًا ، ويدرك جيدًا ما يواجهه من خطر ، فى حالة كشف أمـره ، فنحن نرغب فى إبقائـه فـى موقعـه ، وعدم استعادته ، حتى يمكننا الاستفادة بالعملية ، حتى اللحظة الأخيرة .

تساءل (جون) مستنكرًا :

ـ حتى لو كان هذا على حساب حياته ؟!

وهنا أجابه آخر ، بمنتهى الحزم :

ـ نعم يا سيِّدى .. حتى لو كان هذا على حساب حياته !

ولأن قرارًا كهذا ليس بالأمر البسيط ، ولأن هذه أول مرة تنقسم فيها الآراء ، بين (جون) وفريقه ، فقد احتاج منهم الأمـر إلى مناقشات طويلة محتدمة ، استغرقت منهم الليل كله ..

وقبل أن ينفض اجتماعهم ، أو ينتهوا إلى قرار ما ، كان رجال (الجستابو) فى (برلين) يقتحمون تلك المكتبة البسيطة ، التى اعتاد (ألدريتش) التردُّد عليها ..

وبمنتهى العنف ..

ولأن رجال (الجستابو) مدربون على أعلى مستوى ، فقد أمكنهم ، بقليل من الجهد والبراعة ، التوصل إلى جهاز اللاسلكى ، ومخزون الأحبار السرية ومظهراتها ، وعدد من (الميكروفيلم) الخام ، وفيلمين يحملان صور وثائق نازية ، على أعلى مستوى من السرية ..

وفورًا ، وعلى الرغم من أن الساعة لم تكن قد تجاوزت السابعة صباحًا بعد ، تم إبلاغ (هنريش هملر) بالأمر ..

وقبل حتى أن يكتمل الإبلاغ ، كان (هملر) قد أدرك موضع الثغرة ، التى تتسرب عبرها المعلومات السرية ، من مقر قيادة النازى ..

وفورًا ، أصدر أمره بإلقاء القبض على (رودلف ألدريتش) ..

وفى السابعة والربع صباحًا ، اقتحم فريق آخر ، من ضباط (الجستابو) حجرة (ألدريتش) ، فى مقر القيادة ..

وهناك عثروا على كل ما يثبت تورط الصحفى ، فى لعبة الجاسوسية ، لحساب المخابرات البريطانية ..

ولكنهم لم يعثروا على (ألدريتش) نفسه ..

فوفقًا لأقوال حراس المقر ، غادره (ألدريتش) فى السادسة صباحًا ؛ ليتريض كعادته ، ولم يعد إليه بعد ..

وفى السابعة والنصف ، تم إبلاغ (هملر) بهذا ، فأصدر أمره بانتظار عودة (ألدريتش) ، واعتقاله فور ظهوره ..

وبلغت عقارب الساعة الثامنة ..

ثم الثامنة والربع ..

ولم يعد (ألدريتش) ...

وفى الثامنة والنصف ، أدرك (هملر) وضباطه أن (رودلف ألدريتش) لن يعود أبدًا إلى مقر قيادة النازى ؛ لأنه قد أدرك ، بوسيلة ما ، أن أمره قد افتضح وانكشف ..

وهنا ، أصدر (هملر) أمرًا بتوزيع نشرة بأوصاف (ألدريتش) ، عبر أجهزة الاتصال اللاسلكية ، إلى كل نقطة مراقبة أو نقطة حدود ، فى كل بقعة يسيطر عليها الجيش النازى ، فى طول (أوروبا) وعرضها ..

أما (ألدريتش) نفسه ، فحتى السادسة والربع صباحًا ، وبعد أن خرج للتريض بالفعل ، وفقًا لعادته اليومية ، لم يكن يدرى شيئًا قط ، عما يحدث من حوله ..

ثم قادته قدماه إلى منطقة قريبة من تلك المكتبة البسيطة ، حتى رأى قوات (الجستابو) داخلها وحولها ..

وهنا أدرك أن أمره قد انكشف ، وما هى إلا ساعة أو يزيد ، حتى تطبق عليه قبضة زبانية النازية ، بلا رحمة أو هوادة ..

وبسرعة ، صنعها الخوف وصاغتها غريزة البقاء ، وغزلت خيوطها روح صحفى قديم ، استولى (ألدريتش) على سيارة عسكرية ، بموجب التصريح الخاص الذى يحمله ، وانطلق بها محاولاً الفرار ، وهو يتوقع مطاردة رهيبة خلفه ..

ومن حسن حظه أن مركزية القرار قد أضاعت دقائق ثمينة للغاية ..

دقائق بلغت ما يزيد عن ساعة كاملة ، قطع هو خلالها مسافة كبيرة ، فى اتجاه الحدود ..

كانت أقرب حدود ، غير خاضعة للسيطرة النازية ، تبعد مسافة رهيبة ، يحتاج قطعها إلى ساعات وساعات ؛ لذا فقد هداه تفكيره الصحفى إلى أن يتجه إلى مطار عسكرى ، وصله فى الثامنة ، ليبرز تصريحه الخاص جدًا ، ويوهم الكل بأنه فى مهمة سرية عاجلة ، لحساب الفوهلر شخصيًا ، وأنه يحتاج إلى طائرة فورًا ..

ولأنه شخصية شهيرة ومعروفة ، ومقالاته تشى بعلاقاته القوية بالفوهلر ، ووزير دعايته ، ومعظم جنرالات قيادته ، ولأنه يحمل تصريحًا خاصًا جدًا ، يطالب الكل بالتعاون معه بلا حدود ، فقد استجاب له قائد المطار على الفور ، ومنحه طائرة مع طيار محترف ؛ لنقله حيثما يريد ..

وفى الثامنة والثلث ، كانت الطائرة تحلق به ، فى سماء (ألمانيا) النازية ، فى طريقها إلى الحدود السويسرية مباشرة ..

وفى الثامنة والنصف ، تم توزيع نشرة أوصافه ..

وأدرك قائد المطار المصيبة التى وقع فيها ، ورأى أن أفضل ما يفعله ، فى موقف كهذا ، هو أن يبلغ القيادة بما حدث ، ويطلب من الطيار العودة بالطائرة إلى المطار فورًا ..

ولأن نظم الاتصالات اللاسلكية لم تكن متطوِّرة ، فى ذلك الزمن ، لم تكن هناك وسيلة لإبلاغ الطائرة ، إلا عبر الإشارات الضوئية ، فى المطارات التى تمر بها ..

أما القيادة ، فلم تكد تتلقى الخبر ، حتى جن جنون (هملر) ، وطلب استعادة (ألدريتش) ، أو منعه من الفرار بأى ثمن ، حتى لو اقتضى الأمر إسقاط الطائرة التى يستقلها ..

وفى الطائرة نفسها ، حاول (ألدريتش) عبثًا أن يسترخى ، وهو يجلس فى مقعد خلف الطيار مباشرة ، إلا أنه عجز عن هذا تمامًا ، مادام يدرك أنه مازال فوق أراض يسيطر عليها النازيون ..

وفى تلافيف عقله ، استعاد قصته كلها منذ البداية ، وعلى الرغم من موقفه المتوتر ، شعر بشىء من الارتياح ؛ لأنه لم يعد مضطرًا للتظاهر بعكس ما يؤمن ، ولا لكتابة مقالات حماسية ، تؤيد نظامًا يبغضه ..

وبينما استغرق فى ذكرياته وأفكاره ، فوجئ بالطيار يقول فى دهشة :

ـ عجبًا ! إنهم يستخدمون إشارات ضوئية ، تطالبنا بالعودة فورًا إلى المطار .

اعتدل (ألدريتش) ، فى توتر شديد ، وقال بلهجة ، حاول أن يدفع فيها كل ما أمكنه من صرامة :

ـ أكمل طريقك يا رجل ..

هزَّ الطيار رأسه فى إصرار ، قائلاً :

ـ معذرة يا سيِّدى ، ولكن لا يمكننى هذا أبدًا .. صحيح أن الحدود السويسرية على مسافة كيلومترات قليلة ، إلا أن القواعد تحتم الاستجابة لأمر العودة فورًا ..

سرى توتر شديد فى أعماق (ألدريتش) ، فانتزع المسدس الذى سلموه إياه ، لأول مرة فى حياته كلها ، من غمده ، وصوَّبه إلى رأس الطيار ، قائلاً بكل العصبية :

ـ امض فى طريقك ، وإلا نسفت رأسك بلا رحمة ..

ولم يدر الطيار ما يفعله ، وحاول أن يناقش الأمر ، إلا أنه لم يجد لحظة واحدة للتفكير ، أو اتخاذ القرار ..

ففجأة ، وقبل أن ينطق بحرف واحد ، أصابت قذيفة من قذائف المدفعية الألمانية ذيل الطائرة ..

ودوى الانفجار !

بقوة !!

* * *

٨ ـ مطلوب حيًّا أو ميتًا ..

فجأة ، وبلا مقدمات ، دوى الانفجار ، الذى أطاح بذيل الطائرة الألمانية بمنتهى العنف ، فاختل توازنها ، وراحت تتأرجح على نحو مخيف ، والطيار يصرخ :

ـ لا فائدة .. حاول استخدام المظلة .. ستنفجر الطائرة حتمًا .

كانت الطائرة تهوى مشتعلة ، بزاوية حادة ، وبسرعة مخيفة ، ولم يكن (ألدريتش) قد استخدم مظلات الهبوط الاضطرارى قط ، على الرغم من أنه يرتدى واحدة بالفعل ، منذ صعد إلى الطائرة ، ولكنه لا يدرى حتى كيفية استخدامها !

ولأن لحظات الخطر تولد فى المرء غريزة البقاء فحسب ، ولأن النيران كانت تتجه نحوه مباشرة ، فقد استجمع (ألدريتش) ما تبقى لديه من شجاعة ، ووثب من الطائرة ..

ومع سقوط جسده من ارتفاع كبير ، أصابه رعب شديد ، وراح يجذب كل حبل فى مظلة الهبوط ، والأرض تقترب .. وتقترب .. وتقترب ..

وبسرعة رهيبة ..

وأخيرًا ، جذب الخيط السليم ..

وانفتحت المظلة ..

ولأنها انفتحت على مسافة قريبة نسبيًّا ، فقد خفضت سرعة الهبوط ، إلا أنها لم تبلغ بها حد الأمان ، مما جعل الهبوط قاسيًا إلى حد كبير ، شعر معه (ألدريتش) بآلام رهيبة ، تنبعث من قصبة ساقه اليسرى ، إلى جسده كله ..

وبكل ألم الدنيا ، استقر جسده أرضًا ، وهبطت المظلة لتخفيه كاملاً ، وراح هو يجاهد لإبعادها عنه ، و...

وفجأة ! سمع وقع أقدام تعدو نحوه ، مع فرقعة أسلحة تتخبط ببعضها ، وكلمات لم تميزها أذناه جيدًا ..

وتضاعفت آلامه ألف مرة ..

تضاعفت ، وهو يتصوَّر أن القوات النازية ستطبق عليه خلال لحظات ، لتعيده إلى (برلين) ، حيث سيحاكم ، ويعدم بلا رحمة ..

ناهيك عن الاستجواب الوحشى الرهيب ، وما ينتظره من عذاب بلا حدود ، فى قبو بيت الثعالب ، الذى تحتله قوات (الجستابو) ..

ثم فجأة ! شعر بأياد تزيح المظلة عن جسده ، وسمع صوتًا يسأله فى قلق :

ـ أأنت بخير ؟!

ولم يشعر (ألدريتش) ، فى حياته كلها ، بالسعادة والارتياح ، مثلما شعر بهما ، فى تلك اللحظة ، على الرغم من آلام إصابته ، وكسر ساقه الرهيب ، عندما ميَّز اللغة ، والزى الذى يرتديه الجنود ..

لقد سقط داخل الحدود السويسرية ، وليس فى أية بقعة تتبع السيطرة النازية المخيفة ..

وعلى الرغم من أن (ألدريتش) كان يرتدى زيًا عسكريًا ألمانيًا ، ويحمل هوية عسكرية على أعلى مستوى ، فقد اقتنعت السلطات السويسرية ، وربما تحت ضغط من البريطانيين ، بأنه مجرد صحفى منشق ، ومنحته حق البقاء داخل أراضيها ، فى حين أبلغت النازيين بسقوط طائرتهم ، وانفجارها على أرضهم ..

وبعد تحقيقات محدودة ، فوجئ الكل باختفاء (رودلف ألدريتش) ، من كل الأراضى السويسرية ، قبل بدايات عام ١٩٤٤م ...

وفى (برلين) ، تصوَّر (هملر) أن (ألدريتش) قد لقى مصرعه ، مع سقوط الطائرة ، خلف الحدود السويسرية ، إلا أن تقارير مراقبى الحدود أكدت أن شخصًا قد هبط من الطائرة بمظلة ، قبل سقوطها وانفجارها ..

وحتى يمسك العصا من منتصفها ، افترض (هملر) رسميًا ، أن (رودلف ألدريتش) مازال على قيد الحياة ، ووزع نشرة بأوصافه ، مع أمر عام بإلقاء القبض عليه ، فور ظهوره ..

ولكن (ألدريتش) لم يظهر أبدًا ..

لقد تمت محاكمة العجوز ، صاحب المكتبة المتواضعة ، بتهمة الخيانة العظمى ، وأعدم رميًا بالرصاص ، على الرغم من سنوات عمره ، التى شارفت السبعين ..

واستمر البحث عن (ألدريتش) طويلاً ، وتم عرض مكافأة ضخمة ، للإيقاع به حيًا أو ميتًا !

ولم يحصل أحد على تلك المكافأة قط !!

ليس لأنهم لم يعثروا على (ألدريتش) فحسب ، ولكن لأن (ألمانيا) كلها قد انهزمت ، واندحرت ، وانهارت تمامًا ، مع هجوم الحلفاء ..

وانتحر (هتلر) ، وضاع معه (هملر) و(جوبلز) ، وإن بقيت كل أوراق مقر القيادة أو معظمها ، ليستولى عليها الأمريكيون ، ويجدوا فيها اسم (ألدريتش) ، الذى لم يرفع أبدًا ، من قائمة العاملين بالمقر ..

لذا ، ووفقًا لما حدث بعدها ، تم وضع اسم (ألدريتش) فى قائمة مجرمى الحرب النـازيين ، المطلوب إلقاء القبض عليهم ، ومعاقبتهم علـى مـا ارتكبوه مـن جرائـم ، فـى حق الإنسانية والتاريخ ..

والمدهش أنـه ، وعلـى الرغم مـن هـذا ، عـاد (رودلـف ألدريتش) مرة أخرى إلى (برلين) ..

عـاد ، باعتبـاره البريطـانى (جـون مـالكوم) ، مراسـل واحدة من أهم الصحف الإنجليزية الكبرى فى (برلين) ..

وعندما عاد ، كان يجيد الإنجليزية إلى حد مدهش ، وكانت ملامحه قد تغيرت تمامًا ، تحت إشراف فريق الخبراء ، فى المكتب السادس البريطانى ؛ إذ اصطبغ شعره الأشقر بلون أسود فاحم ، وأصبح له شارب كث ، ويرتدى منظارًا طبيًّا كبيرًا ..

والأهم أنه كان يحمل جواز سفر بريطانى صحيح ..

وعلى الرغم من بحث الكل عنـه رسميًّا ، قضـى (ألدريتش) عشر سنوات كاملة فى (برلين) ، بناءً على طلبه ؛ ليتابع إعادة البناء ، وإعادة تنظيم المجتمع ، سياسيًّا واقتصاديًّا ، ليتحوَّل من نظام نازى ديكتـاتورى بغيض ، إلى مجتمـع ديمقراطى هادئ ومستقر ..

ولكنه لم يحتمل أبدًا عملية بناء سور (برلين) ..

لم يحتمل قط فكرة شطر (ألمانيا) إلى قسمين ، أحدهما يحكمه السوفيت ، والآخر يحكمه ما تبقى من الحلفاء ..

وبعد اكتمال السور مباشرة ، تـرك (ألدريتش) (ألمانيا) ، وحمل كل الأوراق ، التـى منحتـه إياها المخابرات البريطانيـة ، كمكافأة علـى تعاونـه معها ، وتقدم بطلب الهجرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، التى ما زالت تطالب برأسه .. رسميًّا ..

والطريف أنه ، وعلـى الرغم مـن الدقـة الشـديدة ، التـى اتبعتهـا (أمريكـا) ، فـى فحص أوراق المهـاجرين ، عقـب الحرب العالميـة الثانيـة ، حصـل (رودلـف ألدريتش) علـى تصريح بالهجرة ، واستقر فى ولايـة (ألينـوى) الأمريكيـة بالفعل ، فى عام ١٩٥٩م ..

وتحت اسم (جون مالكوم)، عمل (ألدريتش) فى صحيفة محلية، كتب فيها عددًا من المقالات، عن تاريخ وأسرار الحرب العالمية الثانية، وراح يهاجم النظام النازى القديم، وكل النظم التى تسير على نهجه، فى كل مكان فى العالم القديم والجديد..

ومع أوائل عام ١٩٦٢م، كانت شهرة مقالات (ألدريتش) المحلية قد بلغت حدًا كافيًا؛ لينتقل للعمل فى صحيفة كبرى فى (نيويورك)، حيث أنشأ جميعة لتاريخ الحرب، وجمع مقتنياتها، وتذكاراتها..

ومع منتصف عام ١٩٦٦م، حصل (رودلف ألدريتش)، على جائزة خاصة، باعتباره أكبر جامع لتذكارات الحرب العالمية الثانية، وعلى شهادة تقدير، كأحد أهم وأشهر مؤرخى تلك الفترة..

وفى نشاط وحماس منقطعى النظير، قاد حملة كبرى، للبحث عن مجرمى الحرب النازيين، واصطيادهم، من كل مكان فى العالم، ووضع مكافآت خاصة للظفر بهم، من حسابه الخاص، ومن حساب تبرعات كل مناهضى النازية..

والمدهش أن القائمة، التى راح يطاردها، ويسعى لاصطيادها، بكل هذا الحماس، كانت تضم اسمه الحقيقى..

اسم (رودلف ألدريتش)..

ولقد أوقعت حملته بأحد عشر جنرالاً نازيًا، من الذين فروا عقب الحرب، إلى (أمريكا)، و(إفريقيا)، و(البرازيل)..

ولم ينكشف أمره قط!!

وفى عام ١٩٨٢م، ودون أن يتزوَّج، أو تكون له أسرة، مات (رودلف ألدريتش) فى فراشه فى هدوء، فى منزل بسيط، فى ضواحى (نيويورك)، وشهدت جنازته أعداد كبيرة من قرائه، ومؤيديه، وأعضاء الجمعيات التى أنشأها..

ووسط هذا الحشد الهائل، الذى حضر الجنازة، لم ينتبه أحد إلى ذلك البريطانى العجوز، ذى الشعر الأشيب، والشارب الضخم، والذى يحمل وجهه آثار نمش قديم، يوحى بأن ذلك الشعر كان يومًا أحمر ملتهبًا..

ففى هدوء، وبمساندة اثنين من أبنائه، شهد (جون) جنازة (ألدريتش)، وألقى زهرة على تابوته، وكأنما يعلن بها نهاية أهم وأقوى عملية، فى حياته المخابراتية كلها..

عملية الألمانى الثائر..

والمنشق.

* * *

تمت بحمد الله

روايات مصرية للجيب

حرب الجواسيس

المُنشق



د. نبيل فاروق

صراع العقول
الذى يتفوق
دوماً على أعتى
الأسلحة والمعدات



صفحة

الثمن فى مصر ٣٠٠ ص

وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم

المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والاسكندرية
٨ شارع المنطقة الصناعية بالعباسية الرقم البريدى ١١٣٨١
ت: ٢٥٨٦١٩٧ - ٦٨٣٥٥٥٤ - ٥٩٢٨٢٠٢

مطابع

